
أطفال بلا أسر

أنا فرويد   درثى برلنجهام

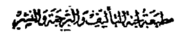
أطفال بلا أسر

ترجمة

محمد بدران
المراقب العام المساعد للثقافة العامة
بوزارة المعارف

رمزى يسى
المترجم الفنى بمراقبة الثقافة العامة
بوزارة المعارف

دار الفكر العربي


مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

محتويات الكتاب

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن المشاكل التي يبحث فيها هذا الكتاب — وهى مشاكل الأطفال الذين لا أسر لهم — أى الذين يربون فى الملاجىء ، ودور الحضانة ومدارسها لمن النوع الذى لا بد أن تواجهه هذه البلاد يوما ما ، ولعل هذا اليوم أقرب مما نظن ، بل إنا لا نخطىء إذا قلنا إننا نواجهه الآن فعلا — نواجهه فى ملاجىء اللقطاء ، وملاجىء اليتامى ومدارس الحضانة التى أنشأت وزارة المعارف عدداً قليلا منها فى هذا العام ، والتى ستزداد من غير شك فى السنين التالية .

لذلك كان جديراً برجال التربية أن يدرسوا المشاكل التى تعالجها المؤلفتان فى هذا الكتاب ، وهى مشاكل جديرة بالدرس والتمحيص ، ليعرفوا ما لهذه المعاهد وما عليها . وهذا الكتاب على صغره من أحسن ما كتب فى موضوعه ، فهو يبحث فى العلاقة بين الأطفال أنفسهم ، وبين الأطفال ومربياتهم ، ويبين أثر هذه المعاهد فى نفوسهم ، كما يشرح العلاقة بينها وبين المنازل ، ويوازن بين آثار كل منها ، ويكشف عن الآثار التى تنجم عن حرمان

الطفل من أبويه وإخوته وأخواته الذين يختلفون عنه سناً ، كل هذا فى وضوح وصراحة قلّ أن ترى لهما مثيلا فى الكتب التى تعنى بأمثال هذه الموضوعات .

ويزيد من فائدة الكتاب ووضوحه وعظيم أثره أنه لا يعنى بالوجهة النظرية وحدها بل يعنى كل العناية بالوجهة العملية أيضا ، فهو يذكر لنا فى كل فصل من فصوله أمثلة واقعية من حياة الأطفال فى دور الحضانة التى تعمل فيها المؤلفتان . فهو من هذه الناحية كتاب علمى وعملى معاً ، وهذا مما يزيد من فائدته ، ويجعل الحقائق التى يذكرها عظيمة القيمة كبيرة النفع .

ويختص الكتاب فضلا عن هذا بميزة عظيمة تجعله جديراً بالدرس والعناية وهى أنه يعرض الحقائق عرضا واضحاً خاليا من المصطلحات العلمية الفنية ، فلا يكاد القارئ العادى يجد فيه ما يلاقيه من الصعوبة فى معظم الكتب العلمية التى تبحث فى هذا الموضوع .

والحقائق التى تعرضها المؤلفتان نتيجة اختبارهما الشخصى ، فهما تعملان من عدة سنين فى دور الحضانة الإنجليزية ، وهما فضلاً عن هذا من المشتغلات بعلم النفس من زمن طويل ، وإحداهما ابنة عالم نفسانى له فى هذا العلم شهرة عالمية ، وهو « سجمند فرويد Sigmund Frued » .

من أجل هذا عنينا بترجمة هذا الكتاب لنضع أمام الآباء بوجه

عام ، وأمام المشتغلين بعلم النفس بوجه خاص ، بعض المشاكل الجديرة بدراستهم ، والصعاب الواجب عليهم تذليلها . ولقد حرصنا أن نجعل الترجمة مطابقة للأصل فى كل شيء .

ولم نسمح لأنفسنا بتغيير أسماء الأطفال التى أوردتها المؤلفتان لأنها أسماء لأطفال حقيقيين أجرت عليهم المؤلفتان تجاربهما ، ولعلهما لا تزالان تجريان عليهم هذه التجارب فى هذه الأيام ، فالكتاب لم يمض على طبعته الأولى أكثر من عام واحد ، ولم يمض على طبعته الثالثة إلا نصف عام .

ونرجو أن يجد فيه القراء ما يبعثهم على التفكير فى الموضوعات التى يعرضها ، وعلى التوسع فى درسها ، وعلى إجراء التجارب الخاصة فى دور الحضانة عندنا ، إذ لا شك فى أن لكل بيئة مشاكلها الخاصة التى تختلف عن مشاكل غيرها من البيئات .

وإنا لنرجو أن يجد فيه الآباء والمدرسون بوجه عام ، ومدرّسات دور الحضانة بوجه خاص ، هاديا إلى طريق الخير .

محمد بدران ، رمزى يسى

مقدمة الكتاب

إن الملاحظات التي نثبتها في هذا الكتاب قد جمعت خلال عملنا التعليمي في ثلاثة من بيوت الحضانة في هامبستد وهي : —

١ — مدرسة ودنبرن رود بلندن .

٢ — رياض نذر هول بلندن .

٣ — نيوبادن في لِنْدسل بقرب دَنْمر بمقاطعة إسكس — (ويقيم بها أربعون طفلاً من سن الثانية إلى العاشرة) .

ومدرسة هامبستد للحضانة مستعمرة لحضانة أطفال الحرب وتشمل أيضا نظيرتها في نيويورك ، وهي بوضعها هذا مدينة بوجودها كله إلى الأريحية الأمريكية ؛ وتكفل كمثيلاتها من بيوت الحضانة مأوى للأطفال الذين تفككت حياتهم العائلية أثناء الحرب تفككا موقوتا أو دائما بسبب ظروفها القاهرة ، ومع ذلك فطريقة الحضانة فيها لا تسير في خطوط رتيبة منتظمة ، بل تحاول أن تعيد إلى الأطفال ما فقدوه — بيتاً آمناً مستقراً ، بما فيه من فرص للنمو الذاتي والتقدم الفردي . على أن حرمان الطفل من أسرته نفسها هو الظاهرة الوحيدة التي لا نملك تجنبها في هذه الحياة .

وظروف الحرب التي تقضي على الوالد بالانخراط في سلك الخدمة الحربية ، وعلى كثير من الأمهات بالعمل طوال الوقت في

المصنع ، وإخلاء المدن الذى استلزمته أعمال الوقاية ، ثم تدمير المنازل الصغيرة من جراء القنابل ، كل هذا فرّق الحياة العائلية عند عدد كبير من السكان . وكانت نتيجة ذلك أن أصبح عديد من الأطفال ولا مأوى لهم ، وإن كانوا لم يفقدوا والديهم ، وكان لزاما أن يُجمعوا ليقيموا فى مدارس الحضانة حيث ذاقوا تجربة الحياة بدون أسرة ، وقد كان هـذا فى وقت السلم مقصورا على ملاجئ الأيتـام .

ولعل الهزة العنيفة التى أصابتهم لم تكن مقصورة على انفصالهم عن أسرهم ، فهناك حرمان الطفل من الاتصال الوجدانى الدائم بوالديه وما فى ذلك من فقدان الأثر التكوينى الخاص الذى يستتبعه الرباط العائلى ، كل ذلك كان من الوضوح فى كثير من الحالات بحيث وجدناه حرياً بالدراسة والوصف .

وليس من المستطاع فى هـذا الوقت أن نتنبأ كم من الأطفال الذين تضمهم دور الحضانة الآن سيبقون بغير مأوى حتى بعد نهاية الحرب . على أن دراستنا المبدئية لظروف أطفال دور الحضانة التى نشرف عليها نحن ، قد أظهرت أن الأحوال الحاضرة ستبقى دون تغير لأن ٥٩ ٪ منهم يمكن أن يلحقوا بأسرهم حالما يسرّح آباؤهم ، وينقضى عمل أمهاتهم فى شئون الحرب ، ولـكن ٤١ ٪ سيبقون بدون مأوى لأسباب مختلفة أهمها :

١ — أنهم أطفال غير شرعيين وأن أمهاتهم ينقصهن الحذق

أو المهارة فى الأعمال المنزلية فلا يستطعن القيام بشؤون المنزل .

٢ — إن أسرهم رقيقة الحال فهى من الناحية الأدبية أو المالية أعجز من أن تعنى بهم .

٣ — إن أمهاتهم قد عجزن عن الاتصال بهم خلال الحرب وأصبح من المتعذر معرفتهن .

٤ — لأن أمهاتهم مريضات يعالجن بمستشفيات السل أو المصحات العقلية .

٥ — أن أمهاتهم قضين نحبهن فى الحرب ولذلك كانت عودتهم إلى الحياة المنزلية موقوفة على زواج الأب للمرة الثانية .

٦ — أو أن الغارات الجوية قد أطاحت بالوالدين معاً .

ومن المحتمل أن تكون نسبة الأطفال الذين لا عائل لهم فى دار الحضانة فى هامپستد ، حيث قمنا بالأبحاث المعروفة فى هذا الكتاب ، أكثر منها فى دور الحضانة الرسمية ، كما أنه من المحتمل أيضا أن تتجه مجهودات بعد الحرب إلى العناية بالأطفال الذين لا عائل لهم ، والاستغناء عن مساعدة مؤسسات الأطفال عن طريق التبنى الشرعى مثلا أو مشروعات توزيع الأطفال على الأسر وغيرها ؛ ولكن مهما يكن من أمر فلا شك أن عدد الأطفال المشردين سيظل كبيراً وأمراً مشكلاً .

وأما محاولتنا تقدير مزايا الحياة الرتيبة ومساوئها فى دور

الحضانة ، بوجوهها ومعالمها المتباينة ، فى تنشئة الطفل ففيها ما قد يوفر لنا مادة تساعدنا على حل هذه المشكلة .

أنا فرويد ، دوروثى برلنجهام

إن ما يحتويه هذا الكتاب قد تضمنته التقارير الشهرية التى كانت ترسل من مدرسة الحضانة إلى مركز « مشروع الوالدين الحاضنين فى نيويورك » . وقد شرح تقدم دور الحضانة فى هامپستد وأغراضها شرحا مفصلا فى كتاب آخر أصدرته المؤلفتان وهو «الأطفال الصغار فى وقت الحرب» سنة ١٩٤٢ .

الفصل الأول

أربعة مظاهر لنمو الطفل من مولده إلى الثانية من عمره

من المعروف بين المشتغلين بالتعليم وعلم نفس الطفل ، أن للأطفال الذين قضوا كل حياتهم فى معاهد الطفولة كالملاجئ مثلا ، طابعاً خاصا بهم يميزهم من نواح كثيرة ممن عداهم من الأطفال الذين نشأوا فى كنف الحياة العائلية ، ولقد وصلتنا بعض معلومات عن طبيعة هذه الفروق عن طريق الملاحظة الفردية حيث يتحول أمثال هـذا الطفل — ربيب النظـام — فيما بعد إلى مجرم أو عدو المجتمع (ارجع لـكتاب إيتشهورن المسمى « الطفل الشاذ ») ، وبعضها الآخر إلى الملاحظة الجماعية لعدد كبير من الأطفال الذين ألحقوا بدور الحضانة بعد إقصائهم عن أسرهم عقب مولدهم أثناء الحرب . وملاحظة هؤلاء الأطفال ملاحظة سطحية تترك لدينا صـورة مضطربة ، فهم فى مظهرهم الخارجى يشبهون إلى أبعـد حد أطفال الطبقة الوسطى ، فبنيتهم حسنة النمو وغذاؤهم مناسب ولباسهم حسن ، وهم يتحلون بصفات النظافة وآداب المائدة ، ويتمكنون بسهولة من إطاعة قواعد المجتمع ونظمه .

أما عن نموهم الخلُـق فـكثيراً ما نتبين أنهم لا يرتقون كثيراً عن مستوى الأطفال الفقراء أو المهملين بالرغم من الجهود الـكثيرة التى بذلت فى هذه الناحية ، وهو أمر يؤسفنا جميعاً ، وهذا يظهر بوضوح حينما يتركون معاهدهم . ومن جراء هذا الفشل فى تنشئتهم عارض المفـكرون من رجال التربية فى السنين الأخيرة فـكرة دور الحضانة بجملتها ، وأخذت معارضتهم تشتد على توالى الأيام ، وابتـكروا وسائل لإقامة الأيتام أو المعدمين من الأطفــال فى رعاية بعض الأسر . ولـكن لما كان من المحتمل ألا تغنى جميع هذه الجهود عما تقوم به دور الحضانة فإن المشـكلة المهمة التى لا تزال قائمة هى :

إلى أى حد يرجع فشل بيوت الحضانة فى مهمتها إلى عيب فيها نفسها بسبب ما بينها وبين الحياة العائلية من فروق ؟ وإلى أى حد يمكنها أن تتجنب هذه المشـكلة فيما لو كانت متأهبة لتغيير الأساليب المتبعة فيها ؟ .

ولو قمنا بموازنة دقيقة بين الأطفال الذين نشرف عليهم وبين من فى سنهم من الأطفال الذين يعيشون فى ظل أسراتهم لوقفنا على حقائق ذات بال ، فالمزايا والمساوئ تختلف بينهما إلى درجة تدعو إلى الدهش إذا راعينا أدوار النمو .

من الميلاد إلى الشهر الخامس

إن أطفال دور الحضانة التابعة لنا ، والذين يعتمدون على التغذية الصناعية لظرف من الظروف ليفضل متوسط نموهم فيما بين مولدهم والشهر الخامس من حياتهم نمو أولئك الأطفال الذين ينشأون فى أسر فقيرة ، فزيادة وزنهم أكثر اطراداً والاضطرابات المعوية بينهم أقل حدوثا ، ولون بشرتهم ومظهرهم العام أبعث على الرضا ، كما أن حالات القلق وتوتر الأعصاب التى تشعر بها الأم دائما إذا مرض طفلها لا وجود لها ، وفى هذا من غير شك فائدة كبرى للطفل . أمّا الأمهات اللواتى يربين أطفالهن الأُول فى كنفهن بمنازلهن الخاصة فإذا ما رزقن طفلهن الثالث أو الرابع وعهدن بتربيته إلينا فإنهن فى العادة يثنين علينا إذا ما وازن بين ربيب دار الحضانة وربيب المنزل . وليس من العسير أن تلمس سبب هذا الثناء ؛ فتحضير الطعام فى دور الحضانة يبذل فيه من العناية أكثر مما يبذل فى تحضيره فى المنزل ، وألوانه متعددة متنوعة كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، والطفل فيها يستمتع بنصيب أوفر من الهواء النقى والحياة الخلوية كلما سمح الجو بذلك ، وغسل الملابس لا يراعى فيه من الاقتصاد ما يراعى فى المنازل ، هذا إلى المهارة والتنظيم فى تناول الطفل واستبعاد ما يقلقه ، مما لا يتوافر فى المنزل وخاصة فى الأحياء الضيقة .

أما الأطفال الذين يتغذون من ثدى أمهاتهم فهم من غير شك يفضلون أولئك الذين يتغذون صناعياً أينما كانوا ، ولعل خير ماوصلنا إليه من النتائج التى حصلنا عليها كانت من الأطفــال الذين تغذيهم أمهاتهم عندنا ، فهؤلاء يبدو عليهم أثر الفائدتين جميعا — عناية الأم بأطفالها — والرعاية الصحية فى دور الحضانة .

من الشهر الخامس إلى الشهر الثانى عشر

فى النصف الثانى من العام الأول تتجه الدفة إلى غير صالحنا ، فـكلما أتيحت لنــا فرصة الموازنة بين أطفالنا فيما بين الشهر الخامس والشهر الثانى عشر بأمثالهم فى هذه السن ممن نشأوا فى كنف أسراتهم فى بيوت متوسطة أدهشنا ما نراه فى هؤلاء من حيوية أكثر من أولئك واستجابة أعظم منهم للظروف الاجتماعية ، وهم عادة أكثر منهم قدرة على تناول الأشياء وعلى اللعب النشيط ، وهم أيضا أنشط منهم فى ملاحظة حركات الناس فى الغرفة ، يتتبعون كل الغادين والرائحين ، ويهتمون بهم على وجه من الوجوه .

والطفل فى هذه السن أعجز بالطبع من أن يلمّ أو يفرّق بين الأشخاص المختلفين فى غرفته الصغـيرة بله دار الحضانة الفسيحة ، ولهذا السبب نفسه قد تكون استجابة الطفل العاطفية للتعبيرات التى ترتسم على وجه الـكبار أو التى تبدو فى أصواتهم بطيئة النمو ، كما أن قدرته على التقليد التى تأخذ فى النمو ابتداء من الشهر الثامن

تُثار بشكل أضعف حين يكون أقل اتصالاً بالكبار ، أو يكونون هم أقل قرباً منه ، أو إذا كان هذا الاتصال موزعاً بين أشخاص كثيرين وهو ما لابد منه فى دار الحضانة ؛ وحتى حيث يكون الأطفال المقيمون أقوى وأصح أجساماً ، فإن هذه الفروق فى النمو العقلى والعاطفى كافية لأن تجعل الطفل ذا التربية الخاصة يبدو أكثر تقدماً وبالتالى أكثر ملاءمة لبيئته . والتأخر النسبى فى الطفل المقيم فى هذه الدور يرجع إلى عدم إشباع حاجاته العاطفية التى لها من القيمة فى هذه السن ما يوازى حاجات الطفل المختلفة . وعلاقة الأم بطفلها الحديث الولادة كانت تقوم فى الأصل على السرور الناتج من سدّ حاجاته الجثمانية ، أما التفاعل العاطفى بين الأطفال والكبار فلا يحدث إلا فى أوقات التغذية والاستحمام وتغيير الملابس ، وعلى ذلك فإن هذا التفاعل العاطفى لا يكون تحت الظروف الخاصة بدار الحضانة أقل حدوثاً منه بالمنزل ، وينجم عن هذا التفاعل بواعث أو دوافع عقلية عند الطفل تتوزع إلى حدٍ ما على ساعات اليقظة فى حياته اليومية فيما بين الشهر الخامس والثانى عشر . ونتيجة ذلك ألا يحظى طفل دار الحضانة بالعناية الفردية إلا فى أوقات الطعام والاستحمام وتغيير الملابس ، ولذلك يفضله فى هذا طفل الأسرة ، وأكثر من ذلك أن العناية الفردية التى قد تمنح للأطفال فى ساعات اللعب والنزهة فى عرباتهم الصغيرة وتدريبات الأطفال الرياضية وغيرها تقف على عناية القائمين بالعمل فى دار الحضانة والأنظمة الأخرى المتّبعة فيه .

ويجب على من تقوم مقام الأم أن تمنح الطفل المتصل بها هـذا النوع من العناية بطبيعة الحال ، ولا غناء فى هذه العناية إذا ما قدمها الزائرون أو الغرباء أو العمال المتطوعون من حين إلى حين .

ويمكن القول بوجه عام إن الضرر الذى يصيب الطفل المقيم من عدم إشباع عواطفه يفوق ما يكسبه من العناية الجثمانية فى النصف الثانى من العام الأول من حياته .

الطفل من عام إلى عامين

١ — ضبط العضلات :

ترجح كفتنا مرة أخرى فى بداية العام الثانى ، إذ أن أعظم حدث فى حياة الطفل هو قدرته الجديدة على الحركة الحرة وعلى ضبط هذه الحركة ، وهذه القدرة التى تنمو بسرعة من الحبو إلى المشى فالجرى ثم التسلق والقفز ، ثم استمراره فى تناول الأشياء كتحريكها ودفعها وسحبها وجرّها وحملها وما إلى ذلك — ولـكن فضلا عن إدراك الأمهات تماماً مقدار السرور العظيم الذى يناله الطفل من وراء استخدامه لقدرته الجديدة فإنهن من أجل ظروف أخرى خارجية يعجزن عادة عن منح أطفالهن الحرية التامة فى اللعب ، وبالتالى يقيدن نموهم فى هذه الناحية . ولا يوجد فى البيوت العادية مساحات واسعة يتحرك فيها الطفل أو هو لا يستطيع أن يفعل ذلك فى المـكان المخصص له

وهو آمن . ومعظم الأمهات يبالغن فى الخوف على أطفالهن من أن يتعرضوا لخطر النار والماء المغلى ، أو السقوط من علٍ ، أو الاصطدام بقطع الأثاث ، أو سقوط بعض الأشياء التى قد يسحبها الطفل فتقع عليه ، والنتيجة الحتمية لذلك هى أن الأطفال الذين يقطعون دور الحبو فى منازلهم يبقون فى مهودهم مربوطين إلى عرباتهم الصغيرة بسير من الجلد ، أو على أحسن الفروض مرتبطين بمكان ضيق فى حظيرة اللعب ، بينما يقطع أطفال دار الحضانة فى مثل سنهم الأميال فى حركة دائمة حول غرفتهم . وبعض الأطفال فى هذا الدور يهملون لُعبهم جميعا وقتاً ما ، وقد لا يهتمون برفاقهم إلا قليلا كأن فكرة المكان والسرعة قد تملكت حواسهم ، فهم يحبون ويمشون ويسيرون ويركضون ويختلفون من طريقة فى الحركة إلى أخرى ، وهم على أشد ما يكونون غبطة ؛ وهؤلاء الأطفال يستخدمون اللُّعب ما داموا قادرين على استخدامها فى ألعاب الحركة الدائمة ، فهم لا يستخدمون الآنية والمقاعد للجلوس عليها بل يدفعون بها إلى أنحاء الغرفة ، كما أن اللعب الرقيقة والحيوانات التى تسير على عجل يسحبونها فى نزهتهم ، والكرات يدفعونها ويتبعونها ؛ وبعض الأطفال ، إذا أصابوا شيئا من الراحة والاطمئنان ، يظهرون سروراً خاصاً حين يحركون لعبهم بكلتا يديهم وهم يتحركون هم بأنفسهم ، وقد يظلون ساعة كاملة يحركون فيها جميع ما بغرفتهم ، يطوفون ويدورون حولها ، ويقطعونها المرة بعد المرة ، كأنهم فى مزلجة

يتزحلقون ، وهم بطبيعة الحال لا يتناولون بأيديهم اللعب فحسب بل يتناولون أيضا كل شيء بالغرفة يستطيعون تحريكه ، سواء أكان ذلك آنية فحم أم مكنسة أم دلوا ، فكلها تدخل في حيز اهتمامهم وتمتد إليها أيديهم فيكشفون عنها . ولو سمح للأطفال فإنهم يستخدمون وظائفهم الحديثة النمو إلى أبعد حد من فتح وفك ونزع للأشياء ، وخاصة إذا كانت محواة . ومن اليسير أن يتخيل الإنسان أعمال الأطفال من هذا اللون وهم مجتمعون كعصابة مخربة لا يمكن التساهل معها بدون تكبد خسارة ونفقات فى البيوت الخاصة .

وليس الطفل وحده هو الذى ترغب الأم فى حمايته من هذه الأشياء ، بل إن عليها أيضا أن تحمى الأشياء نفسها من عبث الطفل .

وحرية حركة اليدين والساقين بالطريقة التى وصفناها ذات فائدة أخرى للطفل ، فضلاً عما فى تحريكها من سرور وغبطة عظيمين . ذلك أن الطفل يزداد مهارة فى تناول الأشياء بسرعة ، فترى الطفل الحديث عهد بالمشى الذى لا يتجاوز الثمانية عشر شهرا قادرا على أن يشترك فى تجهيز مائدته وكرسيه لطعامه ، وأن يأكل بيده ويساعد فى ارتداء ملابسه أو خلعها ، ويشترك اشتراكا إيجابيا فى كل ما يحدث . أما ربيبو المنازل فيكونون فى هذه السن فى حجور أمهاتهم يتناولهم تناول الأشياء الجامدة ، وهذه الفروق فى النشاط وضبط

الطفل لحركاته بالمرانة وإتاحة الفرص له فى سن مبكرة تضفى على ربيب دار الحضانة مظهر النمو غير المعتاد .

٢ — نمو النطق :

على أنه من الخطأ الفاحش أن نبالغ فى تقدير المزايا التى نحصل عليها فى هذه الناحية فلا نربطها بالتأخر وبالمساوئ التى تحدث فى نفس الوقت فى نواح أخرى من محيط حياة الطفل ؛ ذلك أن تمكنه من السيطرة على عضلاته ما هو إلا إحدى المهام المدخرة إلى العام الثانى من حياته ؛ ولا يقل نمو النطق عنده أهمية عن ذلك ، ولقد أثبتت الملاحظات المبنية على علم النفس المدرسى الحقيقة الآتية : وهى أن متوسط مادة الطفل من الألفاظ لا تزيد على كلمتين فى العام الأول ، وقد يكون محصوله من الألفاظ حينما يتم العام الثانى أى عدد من الكلمات من ٤٠ إلى أكثر من ١٢٠٠ كلمة علاوة على مجموعة كبيرة من العبارات والجمل المختلفة ، وكلما وازنا بين أطفال الملجأ الذين تجاوزوا العام الأول وبين أطفال المنازل فى مثل سنهم وجدنا أن نتيجة الموازنة فى هذه الناحية ليست فى صالح الأولين ، وهذا التفاوت فى النمو لا يبدأ مبكرا فى أول عهد الطفل بالكلام ، وتدل ملاحظاتنا الكثيرة على الأطفال الذين تقل أعمارهم عن العام بغرفة الطفل بدار الحضانة على أنهم يتكلمون أو بمعنى آخر يرغون ويتمتمون ويثرثرون بكثرة لا تقل عن الأطفال الآخرين بغير شك .

كما يوجد بالطبع بين الأطفال من هم أكثر قدرة فى هذه الناحية من غيرهم .

(وكان أكثر الأطفال ثرثرة فى « غرفة الطفل » طفلة بين الشهر التاسع والعاشر نمت قدرتها على إحداث أصوات مختلفة نمواً كبيرا ، ولم تكن تهتم إلا قليلا بلعب الأطفال العادية ، ولكنها كانت تتحدث إلى نفسها طوال النهار تقريبا ، وكان من اليسير أن نميز فى حالة هذه الطفلة بين الأصوات والنغمات المختلفة المدهشة التى تصدر منها مثل : رردا — ج ررا — اررجا — دارآ آ — دادا — إدا ، وغيرها .

وكانت تغنى أصواتا أو ألحانا لنداء أناس معينين ، وكان يظهر عليها بنوع خاص السرور والانفعال المتزايد حين تتكلم .

ولكن بالرغم من أن معظم أطفالنا يعرفون الكلمتين اللازمتين لهم فى العام الأول فإن القدرة على الكلام تبطئ فى النمو بعد ذلك — لأن هذه البداية الحسنة التى نمت فى العهد الأول للطفولة لا تطرد بنفس السرعة . وحين نختبر أطفالا فى الثانية من عمرهم مثلا حتى ولو كانوا فى مستوى عالٍ ومتفوقين فى نواحٍ أخرى فإن نتيجة الاختبار تكشف عن تأخرهم فى الكلام نحو ستة أشهر . ولعل هذا التأخر الذى ظهر فى السنة الثانية من عمرهم يرجع إلى سببين :

الأول : أن الطفل ربيب البيت هو العضو الوحيد الذى لا يتكلم فى الأسرة التى يتخذ جميع أفرادها الكلام وسيلة للتخاطب

بينما يعزل الأطفال الصغار فى دار الحضانة عادة عمن يكبرونهم سناً ، ومعنى هذا أن الطفل يعيش مع رفقاء لا يتكلمون ، ولن يكون للكلام فى هذه الحالة أية فائدة مباشرة له ، وإذ كان الكلام يكتسب عن طريق التقليد فإن الفرصة المتاحة لتعلمه محدودة جداً .

والثانى : ويحتمل أن يكون أكثر أهمية — أنه بالرغم من أن تقليد الأخوة والأخوات الأكبر سناً ذو أثر هام وخاصة فى إنماء مجموعة الألفاظ ، فإن بداية الكلام الحقيقى تنمو على أساس الصلة المباشرة بين الطفل ووالديه ، فالطفل يدرك بغريزته كل انفعال يثير أمه ، فهو يرقبها ويقلد التعبيرات المختلفة التى تظهر على وجهها ، وهذا الانفعال العاطفى والتقليد الناتج عنه ، فيه من القوة ما يدفع إلى الكلام ، فإذا كان هذا التفاعل محدودا فى حالة غياب الأم فإننا نجد نقصا واضحاً فى البواعث على الكلام .

تنمو عند بعض الأطفال لغة خاصة أو أصوات متتابعة يستخدمونها مع أمهاتهم وحسب ، وكان هذا واضحاً فى حالة طفلة ، كانت أمها وهى فى شهرها التاسع تعمل بدار الحضانة وتظهر بطبيعة الحال فى « غرفة الطفل » طوال ساعات النهار ، فبدأت الطفلة تحدث أنغاما خاصة تحيي بها أمها على مثال نقنقة البطة ، وفى خلال شهر واحد أصبحت هذه النغمة تختلف كل الاختلاف عن أصواتها الأخرى ، حتى أصبح كل إنسان إذا سمعها يعرف عن بعد متى دخلت أمها الغرفة — وفى شهرها الحادى عشر أخذت هذه

الطفلة تدخل فى دور جديد من التذمر وعدم الرضا ، وكانت بوجه خاص لا تتسامح فى طلب يؤخر لها أو يمنع عنها ، كما كانت تطلب إلى أمها دائما أن تحملها من سريرها بأسرع ما يستطاع ؛ وتوقفت فى ذلك الوقت عن نقنقتها اللطيفة التى كانت تحدثها كلما رأت أمها ، واستبدلت بها نغمة تذمر لا تنفك تبديها فى كل مرة حتى تجيبها أمها إلى رغباتها . وكان تركها صوت النقنقة اللطيفة الهانئة إلى التذمر دليلا على تغير فى علاقتها بأمها أو تحول من الرضا والقبول إلى الطلب والإلحاف .

ولقد أثبتت التحريات التى أجريت فى دور حضانة أخرى نفس الأثر الذى تركته فينا هذه الطفلة — فالأطفال حين يكونون فى زيارة منازلهم بمناسبة عيد الميلاد مثلا أو فى أيام عطلة أمهاتهم قد يحصلون أحيانا خلال أسبوع أو أسبوعين قدراً من الكلام يوازى ما يتعلمونه عادة بدار الحضانة فى ثلاثة أشهر ، وهناك أمثلة عدة تشبه هذا عن أطفال نشأوا فى بيوتهم الخاصة ، ومع ذلك فقدوا قدرتهم الكلامية التى اكتسبوها حديثاً ، وذلك لغياب أمهاتهم . وليس هذا التراجع أو الانتكاس إلا دليلا أقوى على العلاقة بين اتصال الطفل بأمه وتعلم الكلام .

واختلاف التقدم فى الدورين يوضح فعلا أن ثمة عاملين مختلفين يؤثران معاً فى نمو الكلام ، فالأول هو هذا السرور الهادئ الذى ينجم عن إحداث الصوت ، هذا السرور الذى يتركز بعضه فى الفم

نفسه ، وبعضه الآخر يثيره الحجم والكم اللذان ينتجان عن النغم أو الصوت أو الوزن أو نحوهما ، وهو الشعور السار الذى يمكن أن يوازن بأنواع السرور الأولى الناشئة عن شعور الطفل بذاته أو ما يسمى « العشق الذاتى » . والعامل الثانى هو الباعث على التعبير والاتصال بالأشخاص المحبوبين من العالم الخارجى ، والسرور الناتج عن إشباعه يمكن أن يطلق عليه « شعور الطفل بغيره » أو أنه سرور يعتمد على « العلاقة الشيئية » . والأمثلة السابقة تدل على أن الباعثين يعملان جنباً إلى جنب بطريقة نفيد منها كثيراً .

وهذا التباين يفسر اطراد نمو الأطفال اطراداً سويا فى العام الأول من عمرهم ، ثم يتأخر فى عامهم الثانى ، وذلك فى ظروف دار الحضانة الخاصة ، ويوجد العامل الأول أى الباعث على طلب اللذة الذاتية الكلامية قويا إلى أبعد حد ، وهو ككل المسرات الذاتية اللازمة لهذا الدور كالمص والحركات المتماثلة والاستمناء يزداد نشاطاً كلما ترك الطفل لذاته — وعلى هذه الأسس يطرد نمو الكلام ، ولكن فى حدود طاقة الطفل الكلامية وحدها . والعامل الثانى ، عامل الاتصال والمحاكاة القائمين على أساس علاقة الطفل بأمه يكون أقل نشاطاً حين لا تكون الأم حاضرة مع طفلها ، ومن ثم كانت الصعوبة وكان التأخر فى الوقت الذى ينبغى أن يحل فيه العامل الثانى محل الأول فى الأهمية . وبعد عام أو عامين تزول هذه الفروق مرة أخرى لأن الطفل يكون قد أصبح عضواً كاملا فى جماعة ، وأصبح

كلامه مستقلا عن علاقته بأمه ، ولا تصدق الفروق التى شرحناها آنفاً فى نمو الكلام عند الطفل على الأطفال الذين لا يلحقون بدار الحضانة إلا بعد أن يتعلموا الكلام ، ومعنى هذا أن الفروق ليست فى الطريقة ، ولكنها فى نمو وظيفة الكلام نفسها .

٣ — تكوين العادة :

أما العمل الثالث الهام الذى يجب أن يتمه الطفل أو على الأقل ينجز شطراً منه خلال عامه الثانى فهو تكوين العادة ، وهنا أيضاً لا نجد السبيل ميسرة أمام ربيب دار الحضانة ؛ لأن تعويد الطفل عادات النظافة والنظام والمواظبة والصحة تحت أنظمة دار الحضانة الرتيبة أيسر من تعويده إياها تحت ضغط العمل فى البيت . ولكن أينما أهملت وسائل الإكراه كانت نتائج تكوين العادات أيضاً أبطأ من أن تدخل فى حيز الظروف النظامية . وفى هذا الوسط يمكن إغفال التقليد من حيث هو عامل فى تكوين العادات لأن الطفل يعيش فى جماعة من الأطفال كلهم فى سنه وعلى مثاله من القذارة ، فتكوين العادات هنا لا يتم بالتقليد . والشىء الذى نستشعره هو أن تكوين العادات (إن لم نحصل عليه فى عهد الطفولة فى شكل أفعال منعكسة خالصة) لا يكون إلا نتيجة كبت الطفل لبعض البواعث الباطنة الهامة ، وذلك تحت تأثير الأم . فإذا كان هناك شخص معين يتصل بالطفل أو يتناوله دون غيره كما هو الحال فى المنزل ، فإن قدرته على

هذا التحديد لا بد أن تزداد بسبب اعتماده العاطفى على غيره . وكلما تداولت الطفل أيد شتى أو عنيت به مربيات مختلفات ، (كما يحدث عادة فى دور الحضانة) ، أو إذا لم يعن بالمربيات اللواتى يتناولنه ، فإن خطوات التقدم لا بد أن تتئد وتقف دونها الصعاب . ولقد ظهر جلياً فى وقت إخلاء المدن كيف كان الأطفال يفقدون السيطرة على مثانتهم أو عضلتهم العاصرة ، عندما ينفصلون عن أمهاتهم مع أنهم كانوا فى بيوتهم غاية فى النظافة ، وأصبح من المعروف يقيناً فى جميع دور الحضانة أن الطفل الذى تحول بعض العقبات الخاصة دون تعويده النظافة يمكن أن يدرب عليها فى النهاية إذا ما عهد به إلى شخص واحد مدة ما ، كما أصبح من المعروف أيضاً أن كثيراً من أطفال المحاضن لا يستمسكون بعاداتهم الحميدة إلا لكونهم على صلة بمربيات بعينهن ويرفضون القيام بعمل من أعمالهم إذا ما تدخل غيرهن فى شئونهم . ولهذه الفروق فى الاتصال الشخصى أكبر أهمية فى نتائجها النهائية من أية عوامل أخرى (كملاحظة انتظام المواعيد وتنظيم التغذية وغير ذلك) . ويمكن الوصول بالطبع إلى تكوين العادات بالتخويف والعقاب ، حتى إذا لم يوجد العامل العاطفى الإيجابى ، ولكن لا يمكن لمربٍ مستنير حىّ الضمير أن ينصح مطلقاً باتباع مثل هذه الطرق .

أما مهارة الطفل العضلية واستقلاله اللذان يكتسبهما فى دار الحضانة كما أسلفنا فلا أثر لهما فى تقدم الطفل من حيث النظافة .

٤ — التغذية :

أما فيما يختص بالتغذية فإن موقفنا يختلف كل الاختلاف . فنحن نواجه فرقاً ملحوظاً بين استجابة الطفل للطعام فى الظروف المنزلية واستجابته له فى ظروف دار الحضانة — على أن الظروف هنا ملائمة لطفل دار الحضانة ، أو على الأقل تكون كذلك إذا كان نظام دار الحضانة صالحاً ، ومعنى هـذا أن لأطفال معظم دور الحضانة قابلية عظيمة للطعام ، فهم يهتمون به ويتذوقونه إذا حسن . ومشكلات الأكل أقل انتشاراً فى دور الحضانة منها فى البيوت الخاصة ، فإذا كانت هناك حالات شاذة مغايرة لهذه ، فإن حدوثها يكون فى هيئة قَهَم أو مغالاة فى الأكل أكثر منه امتناعا أو نقصاً فى الشهية أو عزوفاً عن الطعام . والتفسير السائد لهذه الحقيقة المعروفة هو أن الأطفال فى منازلهم الخاصة يغلب عليهم « التدلل » فى هذه الناحية ، أى أن كثيراً من الأمهات من الطبقة الوسطى على الأقل شديدات القلق فى مسائل التغذية ، وأنهن يغرين الطفل فى بعض الحالات بالأكل بل بالإفراط فيه ، وفى هـذه الحالة يرفض الأطفال ما يقدم لهم من طعام ، وتتكون فيهم طبائع شاذة غريبة . ويستدل على صحة هـذا التفسير بأن مشكلات الأكل لا تظهر فى الأسر التى تتصف الأمهات فيهـا بالإهمال والتقصير ، وعدم العناية بإطعام الطفل ؛ ولا بد أن يبدو لنا إذن أن الطفل يكون أكثر إقبالا على الطعام كلما قل اهتمام أمه بهذه الناحية .

ومع أن هـذه النظرية لا تعدو كونها سطحية غير مكتملة فإنها تظل صحيحة فى نقطة رئيسـية واحـدة ، وهى أن مشاكل الأكل وثيقة الاتصـال بعلاقة الطفل بأمه ، فإذا ما تتبعنا الطفل الحديث الولادة منذ أدوار النمو الأولى (سـواء كانت تغذيته من ثدى أمه أو بوسيلة صناعية) من حيث العلاقة المتبادلة بينه وبين أمه واستجابته للطعام أمكننا أن نصفها على الوجه الآتى :

يسبق اهتمام الطفل بالطعام اهتمامه بالناس ، ويتلقى المولود الحديث فى الأسابيع الأولى من حياته كل شىء تقريباً يأتيه من العالم الخارجى فى شىء من التذمر ، فهو ما زال يألف الحالة الخالية من المنبهات التى كان عليها فى بطن أمه ، فالضوء والصوت وتغير درجة الحرارة كلها أشياء لا تروقه بل تخيفه ، وأول مزاولة تسره هى تناوله اللبن أى الطعام الذى يشبع باعث الجوع . وبتكرار هذه التجارب السارة يدرك الطفل فى بطء أن جزءاً على الأقل مما يأتيه من العالم الخارجى يسبب له السرور ، فيحب الطفل طعامه (اللبن) ، ثم يتدرج من هذا إلى حب الشخص الذى يطعمه فيصبح بذلك حبه لطعامه أساساً لحب أمه ، كما وصفنا آنفاً ، وتصبح الصلة العاطفية بين الطفل وأمه وأبيه وغيرهما ممن يحيطون به مباشرة مرحلة أكبر وأرقى من المرحلة السابقة التى كان فيها الكسب المادى (كإشباع الجوع) أو كسب اللذة بوجه عام هو العامل الوحيد الهام فى حياة الطفل . ويستحيل هذا النوع من الحب المادى خلال دور الطفولة إلى حب حقيقى يشمل

صفات المحبوب وشخصيته ، وهذا الحب يمكن الطفل من أن يبادل غيره التضحية ، وأن يضحّى هو بداءة .

على أن تجارب العام الأول ، أى عند ما يتحد حب الطعام بحب الأم ، تترك طابعها فى الاستجابة إلى الطعام فى جميع أدوار الحيـاة ، ويظهر الطفل من ناحيته كل الميل إلى معاملة الطعام الذى تقدمه إليه أمه ، كما يعامل أمه نفسها ، ومعنى هذا أن كل الاضطرابات المحتملة التى تعتور صـلة الطفل بأمه قد تتحول بسهولة إلى اضطرابات فى الطعام . وإذا لاحظنا حالات فاقدى الشهية تبين لنا كيف يمكن أن يتحول الضغط من جانب الأم إلى شرَهٍ وإلى عناد ضد الأم نفسها ، فيغلق الطفل فمه تماماً ويرفض الطعام ويغضب على أمه أو يعبث بطعامه أو يبدده (على أن هـذه ليست بالطبع جميع الأسباب المعروفة عن مشاكل الأكل عند الأطفـال ، ولـكنها أول ما يحدث منها وأكثرها شيوعا) .

وكلما استمسكت الأم بما كانت تتبعه مع طفلها فى السنة الأولى من حثّ الطفل على الطعام ، (أى كلما أصرت على إطعامه رغبة فى مرضاتها ، وغضبت وأظهرت استياءها وخيبة رجائها إذا لم يطعمه كأن فى ذلك إساءة موجهة لشخصها) ، قوّت موقفه من الطعام أيّاً كان ذلك الموقف .

وتعمل ميول الأم آنئذ جنباً إلى جنب وفى نفس الاتجاه ، ويستمر الطفل كما كانت حاله أيام طفولته الأولى فى معاملة أمه كمعاملته

للطعام والعكس بالعكس . وكلما واءمت الأم بين تصرفها وبين قدرة طفلها الآخذة فى النماء ، والاكتمال فأخذت تعمل من خلف الستار فلا تظهر بمظهر من يقدم الطعام ولكنها تعده له وحسب ، وفى غير ضجة ، فهنا يبدأ الطفل دوراً جديداً فى الاستجابة للطعام ، وفى هذه الحالة يأكله أو يرفضه طوعاً لشعوره بالجوع أو بالشبع لا تبعاً لحبه أو كرهه لأمه أو رغبة فى إرضائها أو إغضابها . ومع أن القيمة الأساسية للطعام تبقى كما كانت بالنسبة للعقل الباطن عند الفرد ، وقد تبرز فى بعض حالات الانفعال والتوتر والضعف العقلى ، فإن مسألة الأكل تبقى خاضعة لمطالب الجوع ، وتقل صلتها بعواطف الطفل المعقدة . ومعنى ذلك أن الطفل يصبح راغباً فى الطعام ، ومن ثمّ يمكننا أن نفهم لماذا تسبب الأمهات القلقات ذوات الضمائر الحية مشاكل الأكل ، بينما أبناء الأمهات المهملات يقبلون عليه . أما فى دور الحضانة فإن عدم وجود الأم يكون ذا فائدة من هذه الناحية ، وإن كان كبير الضرر من عدة وجوه . وما من شك فى أن من أطفال دور الحضانة من يأكل أكثر مما يجب لأسباب انفعالية ، فهم يحاولون إشباع أحد البواعث الغريزية (كالحب) بدل إشباع الباعث الطبيعى وهو الجوع ، ولكن الطعام بوجه عام يعتبر فى الملجأ مسألة تغذية وحسب مجردة عن فكرة تدخل الأم بين الطفل والطعام ، فالطعام هنا يُرغب فيه لذاته ، والأكل إحدى المسرات المسلّم بها فى كل حياة ملجأية .

ويمكن بالطبع أن تمسخ المسرة أو تقل وتضعف قيمتها إذا أحيطت بالنظام أكثر من اللازم ، كالانتظار الذى يؤدى فى هذه المرحلة من نمو الطفل إلى التوتر الفائق الحد ، والجلوس بغير حراك وهو أشق ما يكون فى عهد الطفولة الأولى ، ثم الإصرار على تقاليد المائدة كاستخدام الملعقة قبل استخدام الأداة الطبيعية ، والإصرار على تناول أى لون من الطعام يقدم له ثم قسره على تناول الكمية كلها .

على أن لذة الطعام يمكن تقويتها عند الطفل إذا ما تركت له بعض الحرية فى الحركة وفى اختيار كمية الطعام ونوعه ، وإذا لم نعتبر العادات المرعية ذات أهمية فى ذاتها ، فتركنا لها مجال النمو نتيجة طبيعية لنمو مهارة الطفل نفسه . وإنه لمن الأيسر علينا أن نمنح الطفل هذه الحريات فى دار الحضانة من أن نمنحه إياها فى المنزل وذلك لأسباب عملية بحتة .

وما دام الطفل فى دار الحضانة لا يأكل منفرداً مطلقاً فإن أوقات الطعام وما تجلبه من لذة يمكن أن توجه بحيث يكون لها شأن عظيم فى نمو الطفل ، وأخذه من لذة الحياة الاجتماعية بنصيب ، وأن يوائم بين هذه وبين نفسه .

الخصوصية : إن وجود الطفل بدار الحضانة فى السنتين الأولى والثانية من سنى حياته له مزاياه فى جميع نواحى الحياة التى لا تمت إلى عواطفه بسبب ، ولكنه يضر به كلما كانت صلته العاطفية بأمه أو بأسرته أكبر أسباب نموه ، وتدل المقارنات بين هذه الأحوال المتباينة على أن أعمالا كالكلام وتكوين العادات وثيقة الاتصال بعواطف الطفل وإن كان لا يبدو ذلك واضحاً للنظرة الأولى .

الفصل الثانى

العلاقات الأولى بين الأطفال المقيمين بدار الحضانة

لقد تخيرنا نواحى أربعاً مختلفة من حياة الطفل لنوضح بها الفروق بين نمو الطفل بالمنزل ونموه فى دور الحضانة ، وهذه النواحى هى ضبط العضلات ، ونمو الكلام ، وتكوين عادات الأكل ، وهذه الفروق « كمية » فى كل حالة من هذه الحالات .

فنمو العضلات وعادات الأكل الطيبة تنمو أسرع وأيسر فى دور الحضانة وأشباهها ، أما الكلام وتكوين العادات فيتأخر نموهما حين ينعدم أثر الأم ، ومع هذا فجميع الأطفال ينتهون إلى المشى والكلام وتعود النظافة ، ويستقلون إلى حد ما فى أمر أكلهم ، وقد يكون ما يحيط بالطفل من ظروف خارجية مساعداً على نموه أو عائقاً له ، كما أن الاضطرابات التى صادفته فى عهده الأول تترك آثارها فى جميع حياته المستقبلة . ولكن مهما كان الأمر فلا بد أن تظل سلسلة النمو كما هى .

أما فيما يتعلق بحياة الطفل الوجدانية ، فليس الأمر على هذا النحو ، فتغير الظروف هنا أى انعدام الجو العائلى ينجم عنه اختلافات نوعية خطيرة ، لأن حاجات أطفال الملجأ الوجدانية الرئيسية تماثل

بالطبع حاجات الأطفال الذين ينشأون بمنازلهم الخاصة . ولكن هذه الحاجات لا تلقى من الإشباع ما تلقاه مثيلاتها فى المنزل ، فالضرورة الأولى الغريزية الهامة هى صلة الطفل بأمه فى أول عهده ، وهذه كما نعلم لا تشبع إلى حد كبير أو قليل ، وبالتالى قد تصبح خاملة ، ومعنى ذلك أن الطفل قد يتوقف بعد فترة معينة عن البحث عمن يحل محل أمه ، ويعجز عن تنمية أكثر أنواع الحب الأساسية سمواً ، هذا الحب الذى ينبغى أن يكون مصوغا على هذا الأنموذج القديم . أو قد يكون لهذا الحرمان تأثير مضاد ، فقد يعمد الطفل المتبرم اليائس إلى توكيد رغبته فى الحصول على أمه ، ولا ينفك دائباً على البحث عن أشخاص جدد يظفر بعطفهم مستعيضاً بهم عن أمه . وهذا النوع من الأطفال يتغير ولاؤهم على الدوام ، وهم على استعداد دائم إلى الارتماء فى أحضان كل زائر جديد ، وهم فى نفس الوقت يلحون فى الطلب ، ويبدو عليهم الانفعال ولكنهم قانطون دائماً من كل علاقة جديدة يكونونها مهما كان شأنها .

غير أن هناك علاقة وجدانية من نوع آخر هى علاقة الطفل بغيره من الأطفال تثار فى أطفال المحاضن وتنمو نمواً كبيراً غير عادى ، أما فى الأسر العادية فصلة الأطفال بعضهم ببعض لا تنمو إلا بعد أن تكون الروابط بين الطفل وأمه قد توطدت تماما ، ويدخل فى حسابنا الأخوة والأخوات من حيث هم بواعث غير مباشرة أى زملاء فى اللعب أو رفقاء ، أما فيما خلا ذلك فعلاقاتهم من حيث

هى حب أو كره لا تنمو مباشرة ، بل عن طريق علاقاتهم العادية بوالديهم ، وبما أنهم ينافسون فى حب والديهم فإن الغيرة والكره يثوران بينهم ، وبما أنهم أيضاً تحت حماية والديهم وبالتالى « تابعون لهم » فإنهم يتسامحون معهم ويحبونهم .

أما فى أطفال الملاجئ فالأمر جد مختلف ، إذ فى الوقت الذى تعوز الطفل الفرص لتنمية علاقات ثابتة بشخص الأم نجد عنده فرصا كثيرة للاتصال برفقاء اللعب ممن هم فى سنه — وبينما يجىء الكبار ويذهبون فى محيط الطفل بشكل لا بد يحيره نجد أن رفقاءه فى اللعب هم الأشخاص الدائمون الذين يهتم بهم فى حياته بقدر ما حسب ظروفه .

وسير الأمور على هذا النحو يعتبر معكوساً تماما لأن أطفال دار الحضانة لا يبدأون حياتهم فى عالم من معاصريهم ولا يطمئن شعورهم إلى الاتصال بأم واحدة اتصالا وثيقاً بحيث يستطيعون الرجوع إليها ، ولكنهم يعيشون فى جماعة متماثلة فى السن أى أنهم فى عالم محفوف بالمخاطر يقطنه أفراد مثلهم قليلو الروابط الاجتماعية طليقون من قيود الأسرة . أما أطفال الأسرة فيصبحون منذ الشهر الثامن عشر من حياتهم « صغاراً » يحميهم ويعنى بهم إخوتهم وأخواتهم الكبار ، ولكن الأطفال الذين يعيشون فى جماعة يتعلمون قبل الأوان كيف يدافعون عن أنفسهم ومتاعهم ويناضلون عن حقوقهم ، بل يحترمون حقوق غيرهم ، ومعنى هذا أنهم يصبحون اجتماعيين عند ما

تسمح سنهم الطبيعية بذلك . وتحت ضغط هـذه الظروف تنمو استجاباتهم بطريقة مدهشة نحو الحب والـكره والغيرة والتسابق والمنافسة والوقاية والحنان والـكرم والعطف بل والإدراك .

وسنوضح هـذه الناحية بأمثلة مقتبسة من الحوادث اليومية لأطفال فى ملجئنا تتراوح أعمارهم بين سنة وسنتين وثلاث سنوات ، وهذه الأمثلة تتناول الأطفال مذ كانوا يعاملون رفقاءهم فى لعبهم معاملة الدمى إلى الوقت الذى أصبحت فيه علاقاتهم وكأن لا فرق بينها وبين العلاقات بين الـكبار .

أطفال يعاملون معاملة الدمى والأشياء

« إغفال شعور الأطفال »

قد لا نـكون بحاجة إلى أن نوضح أن الأطفال فى الأحوال العادية لا يكادون يدركون شيئاً ولا يهتمون بوجودهم إلا إذا كان ذلك لغرض مشاركتهم ألعـابهم ، فالطفل الآخر هنا قد حل محل اللعبة أو الدمية بفارق واحد وهو أن هذه اللعبة الحية أقل ملاءمة من اللعبة الحقيقية ، وليس هذا التصرف مقصوراً على أدوار النمو فى الطفولة الأولى ، ولـكنه يحدث بكثرة حوالى العام الثانى من عمر الأطفال ، وخاصة عند ما يقلد الطفل أحد الـكبار بألعابه الوهمية .

مثال ١ : تطلعت « روز » (٢٠ شهراً) باهتمام عند ما رأت أنوف

عدة أطفال تمسح ، فالتقطت فوراً مظروفا قديماً وجرت من طفل إلى آخر تمسح به أنفه ، وكان هذا العمل على سبيل التقليد وهو يكشف عن تصورها نفسها مربية ، ولكنه لا يشمل أي شعور نحو الأطفال .

مثال ٢ : أراد « پول » (سنتان) أن يرجل شعر الأطفال الآخرين الذين رغبوا عن ذلك ، ولكن « پول » اندفع من طفل إلى آخر ، وأساء استعمال المشط فى شعرهم ، إلا أن طفلا واحداً من بينهم وهو لارى ، وكانت سنه (٢٠ شهراً) لم يهتم بالأمر . وكان « پول » كلما آلم طفلا بمشطه وأبكاه ارتد إلى لارى ورجّل له شعره قبل أن يتقدم إلى ضحيته التالية المتذمرة ، وكانت هذه اللعبة تستمر بضع دقائق أحيانا .

وفى هذا الحادث كما فى المثال الأول ينحصر سرور الطفل فى عملية الترجيل ، وليس فيه أثر لشعوره نحو الأطفال الآخرين .

مثال ٣ : أوقعت « فريدا » (٢٠ شهراً) أربعة أطفال على الأرض واحداً بعد الآخر ، وحاولت أن تجلس عليهم وتتأرجح ، وقد صرخ كل منهم بعد الآخر يطلب التخلص منها ، فلما أخفقت (فريدا) فى تنفيذ غرضها جمعت خمس لعب لينة وكومتها ، ثم جلست تهتز فوقها .

ويصعب فى هذه الحالة أن نقرر هل حلت اللعب محل الأطفال أو حل الأطفال فى محاولتها الأولى محل اللعب ؟ يغلب على الظن أن كلا من الأطفال واللعب حل محل رفيق آخر تمثل فى خيال (فريدا) . ويمكننا أن

نلاحظ نفس هذا التصرف باستمرار فيما يختص بالأكل ، إذ يعمد الأطفال إلى إطعام بعضهم بعضاً فى سن مبكرة جداً . ولا شك فى أن سرورهم فى هذه الحالة ناتج عن تنفيذ إيجابى لحالة خضعوا هم لها من قبل ، ولا ينبغى أن نخطئ فنظن أنه ناتج عن رغبة الطفل فى إشباع رغبة زميله فى الطعام ، لأن هذه لا بد أن تكون تعبيراً خالصاً عن ميل إلى الإيثار .

مثال ٤ : أتت « روز » (٢١ شهراً) على طعامها وألحت فى طلب المزيد منه ، وكانت المربية تطعم كرستوفر (١٦ شهراً) ، وهو يجلس إلى جوار « روز » ، فتركته لتحضر لها طعاماً مرة أخرى ، فالتقطت « روز » الملعقة فوراً وأخذت تطعم كرستوفر .

مثال ٥ : كانت « استيلا » (١٨ شهراً) تجلس بجوار « آنجس » (١٥ شهراً) فأخذت ملعقة « آنجس » وحاولت أن تطعمها فملأت الملعقة بالطعام والتهمته هى ، ثم أدخلت الملعقة فارغة إلى فم « آنجس » وأعادت الكرة مرات عدة ، وفى النهاية أفرغت جميع الطعام الذى كان فى صحن « آنجس » فى صحنها .

وفى هذه الحالة يسهل علينا أن نرى أن هذا التصرف الذى يبدو فى ظاهره عناية بالطفل الآخر ما هو فى الواقع إلا أنانية بحتة ، ذلك أن لذة إطعام الغير (تكرار عملى لتجربة سلبية ولعب وهمى) ، تضاف هنا إلى اللذة الناتجة من الأكل .

أطفال آخرون يعاملون معاملة المقلقين فحسب

« الاعتداء عليهم »

توجد ثلاثة أنواع من الحالات التى تنتج اعتداء طفل على آخر ، إحداها عدم اهتمام الطفل وعدم معرفته بأن الطفل الآخر كائن حساس مثله تماما كما وصفنا ذلك آنفاً . أما الحالتان الأخريان فتشملان أمثلة يُنظر إلى الطفل الآخر فيها على أنه يقف فى سبيل إشباع رغبة ما كأن يطالب الطفل رفيقاً له فى اللعب بصحبة أحد الكبار الذين يريد الطفل أن يخص بهم نفسه ، أو يريد أن يجتذب انتباهه إليه وحده (الغيرة فى المثالين ١ ، ٧) ، أو عند ما يطالب رفيق اللعب بلعبة طفل آخر ، ولا يكون هذا مستعداً للنزول عنها (الحسد الأمثلة ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .

مثال ٦ : كانت « فريدا » (١٨ شهراً) و « ڤيوليت » (١٣ شهراً) تلعبان على الأرض ، فطلبت ڤيوليت إلى المربية أن تجلسها على حجرها ، وأجيبت إلى رغبتها ثم طلبت « فريدا » أيضاً أن تجلس فى حجر المربية وظلت تضرب ڤيوليت حتى أجيب طلبها هى الأخرى ، وقد تلطفت فى بادئ الأمر مع ڤيوليت ؛ ولكن سرعان ما انقلبت عليها وأوسعتها ضربا شديداً .

مثال ٧ : جلست « آنجس » (١٩ شهراً) على حجر المربية

فحاولت « إديت » (١٦ شهراً) أن تدفعها عن مكانها فأخفقت ، فضربتها ، فأخذت « آنجس » تشد شعر « إديت » ، وهذه تشد شعر « آنجس » ، فنحت المربية الطفلة « آنجس » إلى الجانب الآخر لتحميها من « إديت » ، وكانت أقوى من زميلتها ، فاعترضت « إديت » على ذلك فجأة ، ونظرت إلى المربية غاضبة وضربتها وشدت شعرها ، ثم ربتت عليها فجأة وقبلتها

مثال ٨ : كان لدى « آنجس » (١٩ شهراً) دمية تحملها بين ذراعيها ، فاندفع نحوها « پول » (سنتان) وخطف دميتها وجرى بها فصاحت « آنجس » وعدت خلف « پول » وكان أسرع منها فى بادئ الأمر ، ولكنها لحقت به فى النهاية ، وأمسكت بذراعه وجريا معاً يصرخان وسط الملجأ — وسقطت « آنجس » ولكنها ظلت متعلقة بذراعه ، فسقط معها وقبضت وهى على الأرض خصلة من شعره وشدتها فعض على ذراعها فقرصت وجنته ، وعندما أخذ يضربها أسقط الدمية ، فالتقطتها ونهضت تجرى بسرعة واختفت خلف ميدعة المربية .

مثال ٩ : كانت « روز » (٢٢ شهراً) تملك حصاناً خشبياً يجرى على عجلات ولكنها لم تعره اهتماماً كبيراً وكان سام (٢٠ شهراً) مغتبطا به فدفعه على الأرض ، وبعد لحظة جرت « روز » نحوه فى هدوء وأخذته فتطلع إليها « سام » مندهشاً وأخذ يبكى ، ولكنها تركته ومضت بحصانها ، فما لبث «سام» أن استعاد شجاعته وتبعها

وأمسك بردائها فسقطت « روز » على الأرض وهى محتضنة حصانها .
وهنا أخذ « سام » يجذب الحصان من طرف وروز من الطرف الآخر وكلاهما يصيح ، وفى النهاية استولى « سام » على الحصان واندفع يبكى فجرت « روز » خلفه وبحركة سريعة استعادت حصانها فارتمى « سام » على الأرض يائساً . أما « روز » ، وقد دفعت بحصانها يجرى على الأرض ، فقد تعثرت به وسقطت ، واستؤنف الشجار من جديد ، وأخـذا يتجاذبان الحصان بشدة ويصرخان . ورفض كل منهما أية لعبة أخرى . وفى النهاية أخذت المربية الحصان وسرعان ما ساد السلام .

مثال ١٠ : أحبَّ « ثيرى » (سنتان وشهران) دمية فى صورة كلب على عجلات من دمى الملجأ ، وافترض أن له حق الأولوية فى اللعب بها . وأقر الأطفال الآخرون هذا الادعاء لسبب ما ، ولـكنه عندما تغيب لزيارة أسرته مدة يومين ونصف ، انتهزت « إنبيس » (١٩ شهراً) الفرصة لتلعب بالـكلب ، وأراد « ثيرى » عقب عودته أن يستعيد ملـكيته له ، ولـكن « إنبيس » لم تظهر ميلا للنزول عنه فجذبه منها وهزه فصاحت متشبثة به ، فدفع « ثيرى » بالـكلب فسقطت ممسكة به بإحدى يديها وبساق « ثيرى » بالأخرى ، فخدشها هذا ، ولـكن « إنبيس » قامت وهى ممسكة بالـكلب وأخذت تجذب شعره بيدها الأخرى فضربها « ثيرى » وظلَّت هى تشد شعره وهى ممسكة الـكلب بإحدى يديها . وعند ما دفع (ثيرى) صاحبته وكلبها

مرة أخرى تقدمت المربية فأنقذت إنبيس التى لم تطلب إلا أن يهدأ روعها ، وذهب اهتمامها بالكلب .

كلما ظهر الحقد والحسد بين الأطفال نتج عن ذلك ثوران عدائى عظيم القوة . وتختلف طرق التعدى فى هذه الحالة باختلاف أدوار النمو ، فالعض وجذب الشعر والضرب على الرأس والإيذاء والدفع ، هذه كلها تحتل المكان الأول بين سن ١٥ ، ٢٤ شهراً . أما قذف الأشياء والبصق فلا يحدثان إلا بين أنماط معينة من الأطفال ، ويغلب أن تقع هذه الأشياء بعد سن الثالثة لا قبلها (انظر المثالين ١١ ، ١٢) .

مثال ١١ : عضّ « كرستوفر » (١٣ شهراً) أخاه التوأم (شارلى) بضع مرات ، وكان يشد شعره باستمرار كما ضرب بابت (١١ شهراً) ودق « كرستوفر » (١٤ شهراً) رأس شيرلى بحجر ، وعضّ « صوفى » (١٤ شهراً) ، وكذلك عضت شيرلى (١٤ شهراً) كرستوفر .

مثال ١٢ : أرادت « فريدا » (٢١ شهراً) أن تتقدم على « إديت » (٢٢ شهراً) فى التزحلق فدفعتها ، ولكن « إديت » أمسكت بضفيرتها فقبضت « فريدا » بدورها على ضفيرة « إديت » ثم صرختا سويا .

إذا قصرنا اهتمامنا على نتائج أعمال الأطفال العدائية استطعنا أن نميز فى هذه السن بين ثلاثة مظاهر رئيسية :

الأول : لا يدرك فيه الطفل مقدار الأذى الذى ينتج عن عدائه للطفل الآخر لأن إحساسه (بالحسد أو الغيرة) يدفعه إلى القيام بأعمال عدائية ، ولـكن إدراكه لا يمتد إلى أبعد من التفريج عن شعوره بطريق هذا العدوان (مثالى ١٣ ، ١٤) .

أما المظهر الثانى فإن الطفل يدرك أن عدوه سيصيبه ضرر أو أذى ولـكنه لا يعبأ بذلك ، بل يستمتع برؤية نتائج فعلته ، كأن يرى الطفل الآخر يصرخ (مثال ١٥) .

وأما المظهر الثالث : فهو شعور الطفل بالأسف على حالة الطفل الآخر والندم على ما فعل ، إما لشعوره بما يشعر به الطفل الآخر (أى أنه يشعر بالأذى كما أشعر به) ، وإما للرابطة العامة بشخص الأم (إنه منها ولن يرضيها أن ألحق به أذى) . وهـذا الشعور الأخير لا يقوى على منع الطفل من ثورته العدائية . ولـكنه كفيل بتصحيح موقفه بعد أن تـكون ثورته قد خففت من حدة شعوره (مثال ١٦) .

مثال ١٣ : ضرب « كرستوفر » (١٢ شهراً) أخاه التوأم « شارلى » ، ولم يبد على وجه الأخير أى انفعال ولـكنه صرخ متألماً .

مثال ١٤ : كثيراً ما كان « لارى » (١٦ شهراً) يغتصب من طفل آخر لعبته ، فإذا ما صرخ هذا الطفل دهش « لارى » كثيراً وهو يجهل حقيقة فعلته .

مثال ١٥ : « جيسى » (٢٠ شهراً) ضربت شقيقتها التوأم « بيسى » ، وكانت فخورة بذلك .

مثال ١٦ : « ديك » (سنتان) كان له طابع خاص فى تعدّيه على الأطفال الآخرين ، وكان تعبير وجهه يدل من غير شك على رضاه عن كل نوع من الأذى يستطيع أن يلحقه بهم . ولقد تغيرت استجابته لهذا العمل ببطء عند ما اتصل بمربية معينة ، ولكنه عاد مرة أخرى فهاجم « أيدا » (٢٢ شهراً) ، وقد وجدت بين أصابعه خصلة من شعرها ، وعنفته المربية على سلوكه هذا فندم ورجع إلى « أيدا » فرفع قبضته إلى رأسها ، ثم فتح أصابعه وأعاد خصلة الشعر بعناية إلى المكان الذى انتزعت منه .

وهذا النوع من النزوع يمكن أن نلاحظه فى الأسرة وفى الحياة الملجأية على السواء، ولكن دواعى الغيرة تتوفر كما قلنا لدى الأطفال المتقاربى السن الذين يعيشون جماعات أكثر منها لدى أطفال المنازل (وتزداد هذه الحالة كلما حاولنا إيجاد بديل لأمهاتهم) . فهم دائمو التحاسد بسبب ضرورة اشتراكهم فى اللعب ، ومن أجل هذا يبدو للزائر الطارئ أنهم أكثر تعاديا . وإنه ليكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا إن أسباب الاعتداء تتاح لهم أكثر مما تتاح لغيرهم . فإذا أضفنا إلى هذا حقيقة أخرى هى أن ضحاياهم ممن فى سنهم يكونون فى الوقت نفسه وللأسباب عينها أضعف منهم وأكثر مشاكسة من إخوتهم وأخواتهم الأكبر منهم سناً إذا كان لهم أخوة وأخوات ، كنا أقدر على فهم الأسباب التى تؤدى إلى كثرة حالات المشاكسة فى جماعات الأطفال فى الملاجئ .

ومما يجدر بالملاحظة أن هذه المشاكسات قلما تظل مقصورة على الطفلين اللذين يبدآن الشجار، بل تتعداها بسرعة وتشمل الأطفال الآخرين الذين لزموا الحياد ولم يشتركوا فى هـذا العراك فى بادئ الأمر (مثالى ١٧ ، ١٨) .

مثال ١٧ : خطف « بول » (٢٣ شهراً) دمية « صوفى » (١٩ شهراً) فصرخت « إديت» (٢١ شهراً) واندفعت نحو صوفى لتضربها فجذبت صوفى ثوبها ، فصرخت « إديت » وجذبت شعر « صوفى » ، ثم اشتركت « إنبيس » (١٨ شهراً) فى المشاجرة ، فجذبت شعر « صوفى » ، ثم شعر « إديت » . وفى هـذه اللحظة أخذت تدفع « إنبيس » حتى استجارت ، ثم اشترك « لارى » (١٩ شهراً) فى القتـال ، وتقدم من « إنبيس » وأسقطها على الأرض . وكانت « إديت » قد أفاقت فضربت « لارى » حتى جذب هـذا شعرها فأبكاها ، وفى أثناء هـذا كله اقترب « سام » (٢٣ شهراً) من « إديت » وربت على شعرها مظهراً لها عطفه بصوته .

مثال ١٨ : كانت « صـوفى » (١٧ شهراً) تلعب بفنجان دميتها فى هـدوء فأخـذه منها « سام » (٢١ شهراً) فصرخت ولـكنها أخذت تلعب بلعبة غيرها بعد وقت قصير ، حاولت « إديت » أخذ الفنجان نفسه من « سام » فتقاتلا ونجحت « إديت » فى أخذ الفنجان والابتعاد به ، فارتمى سام على الأرض يبكى ، ثم نهض وتناول صندوق خطابات فارغ وحاول ضربها به على رأسها فارتمت « إديت »

على الأرض وأخذت تصرخ وترفس ولكنها بقيت محتفظة بالفنجان .
واشتركت « إيفى » (١٩ شهراً) فى الشجار إذ جلست على جسم « إديت » وجذبت شعرها وانتزعت منها الفنجان وجرت به ، وأفاقت « إديت » بعد هنيهة فحاولت استعادته من « إيفى » . وبينما كانتا تتقاتلان على الأرض زحفت نحوهما « إنييس » (١٦ شهراً) وأخذت الفنجان ، وحاولت « إديت » استعادته ، ولكن « إنييس » وقفت دونه بعناد ، وعلى مسافة منهما وقفت « إيفى » مرخية ذراعها مستسلمة باكية ، وكانت « إديت » تصرخ كما كان « سام » وصوفى يبكيان لأن « سام » كان قد تعثر « بصوفى » ، ولم يبق إلا « صوفى » واقفة معتمدة على السرير بإحدى يديها لتتماسك ملوحة بالفنجان بيدها الأخرى علامة على انتصارها .

أطفال آخرون يعاملون معاملة من يخشى بأسهم

« طرق الوقاية التى تتخذ إزاءهم »

تنشأ قدرة الإنسان على الدفاع عن نفسه متأخرة عن قدرته على المهاجمة . وهذه حقيقة معروفة وإن كنا لا نعيرها أهمية كافية . فالأطفال الذين يمكن أن يشاكسوا بشدة إذا ما استحثتهم الغيرة أو الشعور بالحسد فيعضون ويضربون أو يدفعون غيرهم بالطرق التى وصفناها فيما سبق ، هؤلاء أنفسهم يقفون فجأة ولا حول لهم يصرخون

ويجرون طلباً للحماية عند ما يهاجمهم غيرهم ، وكثيراً ما يبدو عليهم الدهش أو العجب إذا ما اعتدى عليهم طفل آخر ، وإن كانوا قد ارتكبوا أعمالا مماثلة لذلك منذ هنيهة .

وتنمو طرق الدفاع المعقولة (بالفعل أو بالقول) نمواً بطيئاً ، وقلما تستقر تماماً قبل سن الثالثة ، وبالرغم مما فى بعض أطفالنا الأكبر سناً (بين الرابعة والخامسة) من روح المشاكسة ، فإن كل ما يفعلونه من ذلك هو أن يهاجموا غيرهم من الأطفال ثم يبكوا إذا ما هاجمهم غيرهم . غير أن من الأمثلة التى نوردها فيما بعد ما يدل على أن بعض الأطفال الصغار ينجحون من حين لآخر فى معاملة الأطفال المشاكسين ، ويتمكنون بإصرارهم من أن يجبروهم على ترك نواياهم العدوانية (المثالين ١٩ ، ٢٠) .

مثال ١٩ : نمت عند « إيفا » (١٨ شهراً) عادة الجلوس على رأس « إديت » (١٨ شهرا) كلما وجدتها مستلقية على الأرض ، وكانت « إديت » تصرخ كلما فعلت بها ذلك ، إلا أنها لم تحاول مطلقاً أن تدافع عن نفسها أو تنجو منها .

مثال ٢٠ : كان « سام » (٢١ شهرا) يلعب بهدوء عند ما أخذ منه « لارى » (١٩ شهرا) كرته ، فتطلع سام إلى يديه الخاويتين وأخذ يبكى .

مثال ٢١ : كان « بول » (سنتان) ماهراً فى البناء ، وكان يبنى أبراجا فى ارتفاع قامته من قوالب الطوب الصغيرة ، وكان يخشى دائماً

وهو يقوم بالبناء أن يهدم أحد الأطفال برجه ، وكانت هذه الفكرة سبباً فى توزيع انتباهه إذ كان يتطلع إلى كل ناحية فى حالة عصبية خشية أن يقترب منه عدو ، فإذا جرؤ طفل على الدنو منه اندفع إليه (پول) ودفعه عنه بحركة سريعة نشطة ، وعند ما انهار برجه مرة أخرى بالرغم من جميع الاحتياطات التى اتخذها ، جلس پول على الأرض يائساً وظل يبكى وقتاً طويلا ، ثم أخذ يمص أصبعيه وبدأ يبنى من جديد وهو يبكى ، وقد كرر هذا العمل مرات عدة .

مثال ٢٢ : كانت « صوفى » (١٩ شهرا) تصعد درجات المنحدر وكان يتبعها « لارى » (٢٠ شهرا) يريد أن يسبقها فدفعها ، ولكن صوفى استدارت له وقالت « لا . لا . لا . » ثم جذبت شعره .

مثال ٢٣ : كان « سام » (٢٢ شهرا) يبنى مستخدماً كرسيين صغيرين ؛ وقد احتاج إلى ثالث ولكن « أنييس » (١٩ شهرا) كانت تشغل هذا الكرسى ، فسار إليها « سام » ونظر إليها متوسلا نحو نصف دقيقة ولكن « أنييس » حملقت فى وجه « سام » ولم تتحرك ، وهكذا ارتد « سام » كسير الطرف يمتص إبهامه وتراجع فى بطء .

مثال ٢٤ : كانت « صوفى » (١٩ شهرا) ممسكة بكعكة وأراد « لارى » (١٩ شهرا) أن يؤذيها . فأخذت تصرخ عند ما اقترب منها ، وما من شك فى أنها قد حزرت سوء قصده ، فسحب « لارى » يده عند ما صرخت وأخذ يتشاغل بدميته التى كانت بينهما

بأن يلعب بها ويشير إلى عينيها ، وكانت عيناه مثبتتين على الكعكة طوال الوقت ، وقد حاول مرات سنوح الفرصة ليختطفها إلا أن « صوفى » لم تترك له هذه الفرصة فابتعد عنها يائساً فى النهاية .

أطفال آخرون يواسون ويلاطفون ويهدأون

بالرغم من أن الأطفال أسرع ما يكونون إلى إيذاء بعضهم بعضاً فإنهم فى نفس الوقت سرعان ما يظهرون العطف على طفل آخر يعوضونه عما أصابه وخاصة إذا لم يكن هـذا العمل العدائى قد صدر عنهم شخصياً ، بل عن شخص ثالث . وظاهر أن الباعث على هذه الشفقة هو امتزاج عواطف الأطفال بعواطف هـذا الطفل الذى لحقه الأذى .

فى المثالين (٢٧ ، ٢٨) الدليل على أنه قلما يوجد فرق بين تهدئة الطفل لغيره وتهدئته لنفسه ، وهـذا الامتزاج بين عاطفة الطفل وعاطفة زميله الذى أوذى تظهر أيضاً فى حالات كثيرة يتخذ فيها الأطفال موقفاً عدائياً إزاء المعتدى ، وهكذا نجد أن الطفل الذى يهدئ غيره أو يواسيه غالباً ما يربط العمل الودى بالنسبة للشخص الذى أوذى بعمل عدائى يوجهه نحو المعتدى .

مثال ٢٥ : جلست « ڤيوليت » (سنتان وأربعة شهور) فى ركن الغرفة تبكى ، فاندفعت « أنييس » (١٩ شهراً) فجأة إلى علبة اللعب وأخرجت منها لعبتين أعطتهما لڤيوليت ثم جرت مبتعدة عنها ،

وكانت هذه أول مناسبة تقدم فيها مساعدة لغيرها .

مثال ٢٦ : كان « سام » (٢٢ شهراً) قد امتنع تواً عن الصراخ ولكن علامات الكآبة بقيت على وجهه عند ما دخلت « روز » (٢٢ شهرا) إلى الغرفة ، وما من شك فى أن ملامحه قد استلفتت أنظارها فتفرست فيه بإمعان لحظة قصيرة ، ثم اندفعت نحوه وأحاطته بعطفها .

مثال ٢٧ : كانت « روز » (٢١ شهرا) تراقب « إديت » (٢٢ شهرا) وهى تربت على « سام » (٢٢ شهرا) وهو يصرخ فتقدمت من سام وربتت عليه هى أيضاً وعندئذ ذهبت إلى « إديت » وفريدا (٢٢ شهرا) وربتت عليهما ، وأخيراً مسحت رأسهما وخدّهما بيدها وعلى ثغرها ابتسامة متألقة وأحدثت نغمات عاطفية

مثال ٢٨ : كان الأطفال الصغار فى انتظار الشاى بعد الظهر ، فجلس « شارلى » (٢٣ شهرا) وپول (سنتان) على مائدة واحدة ، وكان پول يلعب بصندوق من الصفيح أراد شارلى أخذه منه ، فلما حاول ذلك ، أقفل الصندوق على إصبعه فأخذ يصرخ ، وعندما رأى پول أنه ألحق بزميله أذى رفع إصبعه فأدخله فى فم « شارلى » وذلك ليخفف عنه .

مثال ٢٩ : كان « پول » (٢٣ شهرا) قد آذى « إديت » (٢١ شهرا) فصرخت بشدة ، وعند ما رآها « سام » (٢٠ شهرا) على هذه الحال تقدم إليها مواسياً ، وكان « لارى » (١٩ شهرا) يرقب هذا

المنظر فتقدم مشاركا « سام » فى مواساة « إديت » .

مثال ٣٠ : سقطت من « جيفرى » (سنتان وخمسة شهور) دميتها فصرخت بشدة فاندفعت « روجت » (سنتان وثمانية شهور) نحو الدمية وضربتها بيدها ، وأخذت تهزها إلى أن انقلبت ثم التقطتها مرة أخرى وضربتها ، وحينئذ ظهرت عليها علامات الرضا .

مثال ٣١ : كان « سام » (٢١ شهرا) يلعب بهدوء (ارجع إلى المثال ٣٠) ففاجأه « لارى » (١٩ شهرا) بأخذ كرته ، وهنا تطلع « سام » إلى يديه الخاويتين يائساً ثم أخذ يصيح ، وكانت « إديت » (٢١ شهرا) تشهد هذا الحادث فاندفعت نحو « لارى » وضربته وأخذت منه الكرة وجاءت بها إلى « سام » ، ومسحت شعره بيدها حتى هدأ .

مثال ٣٢ : اتخذ « ديك » (سنتان ونصف) لنفسه طريقة خاصة فى المشاكسة ، فقد أراد أن يغتصب لعبة كان يلعب بها « إرون » (سنتان وثلاثة شهور) فارتمى على إرون وطرحه على الأرض ، ولكن لسوء حظه جرحت اللعبة شفته فواسته المربية وأفهمت « ديك » نتيجة عمله ، فاعترى « ديك » الخوف وحملق فى « إرون » وجال ببصره فى أنحاء الغرفة حيث رأى « كيتى » (سنتان ونصف) ممسكة بدميتها فهجم عليها وألقاها على الأرض وأخذها منها وأعطاها «لأرون» قائلا : « مسكين يا إرون ! مسكين يا إرون ! » . وهنا نبهته المربية إلى أن كيتى تبكى وأفهمته أنه أحسن

صنماً فى مواساة «إرون» ، على أنه كان يجدر به أن يقدم له لعبة أخرى فلا يؤذى « كيتى » ، ولـكن يبدو أن « ديك » لم يفهم هذا القول فصاح « كيتى خبيثة » وكررها عـدة مرات (وذلك لأنها لم تنزل عن دميتها) . ولم يهتم إلا بشفة إرون التى كانت تدمى .

أطفال يساعد بعضهم بعضاً

إن الميول التى توجه الطفل إلى مواساة غيره ، والتى وصفناها من قبل هى نفسها التى تدفع الأطفال إلى مساعدة بعضهم بعضاً فى جميع شئون الحياة اليومية المختلفة . وعلى أساس هذه الحاجات والرغبات نفسها نجد طفلا من الأطفال يدرك تمام الإدراك متاعب الأطفال الآخرين ورغباتهم ويشاطرهم إياها .

مثال ٣٣ : كان « چاك » (١٤ شهرا) يبكى لأنه أضاع كعكته ولم يعثر عليها ، فتقدم نحوه « سام » (٢١ شهرا) ووجد الـكعكة على الأرض فقدمها له .

مثال ٣٤ : جلست « روز » (١٩ شهراً) إلى المائدة وشربت الـكاكاو ، وصعدت « إديت » (١٧ شهرا) إلى المـائدة وحاولت أخذ الـكوب من فم « روز » ، فنظرت هذه إليها بدهشة ثم أدارت الـكوب نحو « إديت » وأمسكت به لتمـكنها من شرب الـكاكاو

مثال ٣٥ : كانت « چيسى » (سنتان) تدفـع أمامها عربة صغيرة حول الحديقة ، فلما وصلت إلى ركن الممر ، لم تتمكن من الالتفاف فدفعت العربة بشـدة إلى حافة الممر ، وأخذت تصرخ .

فأسرعت « بيسى » أختها التوأم لإنقاذها ودارت بالعربة حول الزاوية بدلا من أختها ، وبعد وقت قصير كانت « بيسى » تدفع العربة أمامها فإذا بها ترتطم بنفس الزاوية وتصرخ ، فأسرعت إليها « جيسى » فى هذه المرة وأدارت لها العربة حول الزاوية ، وهكذا تمكنت كل منهما أن تقوم للأخرى بما عجزت عن عمله لنفسها .

مثال ٣٦ : خلعت « إديت (٢١ شهرا) حذاءها وجواربها وحاولت عبثا أن تلبسهما . وكان « بول » (٢٣ شهرا) يراقبها عن بعد فاندفع إليها وجلس على الأرض وأخذ منها الجورب وحاول أن يلبسها إياه فى صبر عجيب ، وكان فمه فاغرا ولسانه ممدوداً وتنفسه سريعاً ، وكانت إديت ترقبه فقلدت ملامح وجهه على الفور ، وبعد دقيقتين أو ثلاث كان الطفلان « منهمكين » فى عملهما وعلى وجهيهما أقصى علامات التوتر .

مثال ٣٧ : أحضرت المربية « جان » الطفلة بردجت (سنتان) من غرفة النوم فى الصباح ، ولما كانت غرفة الملابس فى الطابق العلوى مشغولة بالأطفال فلم تأخذ إلا هذه الطفلة وحدها ، وحين مرورها بفراش الأطفال الآخرين سمعت جفرى (سنتان) يبكى فتوقفت وقالت « إن جفرى يبكى ياجان » . وهنا أوضحت لها المربية أن على جفرى أن ينتظر قليلا ثم تابعت سيرها لتصحبها إلى الطابق العلوى ، ولكنها وقفت فجأة فى منتصف الدرج والتفتت إلى جان وقالت لها « إننى ذاهبة إلى جفرى » وقفلت راجعة — وانتظرت المربية عودتها

ثم تبعتها لترى ماذا حدث ، وكانت « برذجت » فى ذلك الوقت قد أزاحت الكلة عن سرير « جفرى » ليتمكن من ترك فراشه ، ثم اندفعت إلى السلم الخشبى نحو فراش بل (سنتان وتسعة شهور) لتمكنه من ترك فراشه هو أيضا ، وكانت على وشك أن تفعل هذا مع « دان » (سنتان وثمانية شهور) إذ أمسكت بيده وقالت له « لا تسقط » .

أثر الأطفال التربوى المباشر بعضهم فى بعض

منع المشاكسة والنهم وعادات القذارة وما إليها

المعروف أن الأطفال يعلم بعضهم البعض ، وأن تأثير الإخوة والأخوات الأكبر سناً فى الأسر قوى بالإضافة إلى أثر الوالدين التربوى ، وكثير من الأطفال الذين يأبون طاعة والديهم سرعان ما يستجيبون إلى أوامر الأطفال الذين يكبرونهم سناً ونواهيهم . كما يبدو أن زجر هؤلاء بل عقابهم لهم مهما كان قاسياً أقل ضرراً ، فهذه الخدمة التربوية التى يقوم بها الإخوة والأخوات الكبار من الأسباب التى تجعل تنشئة الأطفال فى الأسر الكبيرة العدد أيسر منالا .

على أن هذا النوع من « التربية » الذى يعتمد على الأطفال الكبار يختلف جد الاختلاف عن الأثر الذى يحدثه اجتماع الأطفال ذوى الأعمار المتقاربة ، فبينما نجد الإخوة والأخوات الأكبر سناً يقومون بدور الأب (بشكل مصغر) ، نرى جماعات الأطفال

المتقاربى السن متساوى القامة أيضاً ، فالطفل إنما يترك أثره فى طفل آخر إذا كان فى تلك اللحظة أقوى منه لأنه حينئذ يكون أداة تهديد له ، فهو يطيعه لأنه يخشاه . كذلك يكون للطفل تأثير فى طفل آخر إذا كان لديه فى تلك اللحظة مميزات أخرى (كالمشى ، وتكوين بعض العادات الخ) . على أن الموقف يتغير إذا لعبت أعمال الطفل الآخر دوراً أكبر من الأعمال السابقة وتفوقت عليها ، ومعنى هذا أن الأطفال يؤثرون فى بعضهم البعض على أساس التفوق العضلى أو تفوق العمل ، فخوف الأطفال أو إعجابهم بعضهم ببعض هما العاملان الفاصلان فى الموضوع . وتدل المشاهدات على أنه ينجم عن العلاقات التى تنشأ بين الأطفال نتائج معينة يتضح لنا لأول وهلة أنها لا تختلف كثيراً عن النتائج التى يؤدى إليها التعليم الصحيح ، فيمتنع اعتداء بعضهم على بعض . وتؤجل الرغبة فى الإشباع ، ويتعود الأطفال « عادات حميدة » تحت تأثير هذه الظروف .

مثال ٣٨ : جذبت « فريدا » (٢١ شهراً) شعر « سام » (٢١ شهرا) فبكى ولكنه لم يدافع عن نفسه . فقصد چفرى (سنتان وأربعة شهور) إلى « فريدا » وضربها ضربتين ثم واسى « سام » ، وعندما توقف سام عن البكاء التفت « چفرى » مرة أخرى نحو « فريدا » ، ونظر إليها حانقا ، وسرعان ما لاذت « فريدا » بركن الغرفة فابتعد عنها « چفرى » راضيا عن نفسه :

ويتضح لنا من هذه الحالة سبب ما كان «لچفرى» من أثر ، فهو

أكبر من « فريدا » بسبعة شهور وأقوى منها كثيراً ، وبما أنه لم يتردد لحظة فى استخدام تفوقه العضلى ، فقد كان بذلك خطراً كبيراً يهددها ، ومن ثم تراجعت عن مشا كستها خوفا منه .

مثال ٣٩ : كان « سام » (٢١ شهرا) يبنى بالقوالب فى ركن من الغرفة فاقتربت منه « فريدا » (٢١ شهرا) فى حرص ، وقد بدت عليها نية هدم ما بناه ، فتطلع إليها « سام » قائلا : « لا . لا . » . فعدلت « فريدا » عن قصدها وترددت برهة ، ثم أخذت تلتقط القوالب وتناولها « لسام » واحداً بعد الآخر .

نرى أن النتيجة التى وصلنا إليها فى هذه الحالة ترجع إلى أسباب أخرى ، « فسام » و « فريدا » من سنٍ واحدة ولا فرق بينهما فى القوة البدنية ، و« سام » بنوع خاص طفل ظريف لا يخافه أحد من الأطفال مطلقا ، ففى هذه الظروف لم تحجم « فريدا » عن التخريب خوفا منه ، ولكنها تأثرت من تصميمه إلى درجة أنها عدلت عن قصدها من التخريب إلى عكسه تماما ، فقدمت له مساعدتها بعد أن كانت تنوى الإضرار بعمله .

مثال ٤٠ : كان بيد « بيسى » (١٩ شهرا) مشط ، وكان مع « چيسى » أختها التوأم دمية تلعب بها ، وكانت « بيسى » ترغب فى أخذ هذه الدمية إلا أنها كبتت هذه الرغبة ، وعلى حين غفلة قدمت المشط إلى « چيسى » فأخذته هذه بهدوء وسلمت

اللعبة المرغوبة إلى أختها ، ولم يحدث بينهما صوت عند ما حدث هذا التبادل .

يتعلم كل الأطفال فى مجموعاتنا فى وقت مبكر جداً أن خطف لعبة طفل آخر يؤدى إلى المتاعب لأن ضحية هذا الاعتداء ، إما أن تثور متبرمة أو تشق به ، والطريقة المستعملة غالبا هى التبادل ، فهم يمنحون شيئا بيد ليأخذوا مقابله بالأخرى . ثم إن هذا العمل كما بينا فى الأمثلة السابقة ، وإن كان يبدو فى ظاهره ميلا إلى عمل الخير وحسب ، فإنه فى الواقع يدل على ضبط النفس عن النهم والعدوان اللذين اكتسبهما الطفل تحت وطأة التجارب القاسية ، ويمكن ملاحظة هذه الحوادث على الدوام فى الملجأ — فمثلا :

مثال ٤١ : صرخت «ماجى» (سنتان) لأن أختها « دينا » (٣ سنوات) خطفت منها لعبتها ، وكانت « بردجت » (سنتان) تشهد هذا المنظر فأرادت أن تعيد النظام فاختطفت اللعبة من «دينا» وأعادتها إلى « ماجى » . فلما ارتمت « دينا » على الأرض وصرخت أسرعت «بردجت» تبحث لها عن لعبة سواها ، فعثرت على لفة قديمة من ورق التنشيف فقدمتها إلى « دينا » فرفضتها ، فأعطتها « لماجى » وأخذت منها اللعبة فى نفس الوقت لتعطيها «لدينا» . ولشد ما تحيرت « بردجت» عندما أخذت « ماجى » هى الأخرى تصيح مثل « دينا » — وكان هذا أكثر مما تحتمل « بردجت» فقد ضربتهما فى أول الأمر ، ثم أخذت تواسيهما بعد ذلك ، فلما لم يفدهما هذا شيئا أسقط فى يدها — .

مثال ٤٢ : حاولت « كارول » (٣ سنوات ونصف) خطف دمية « چيسى » (سنتان) فعضتها « چيسي » عضة اضطرتها إلى ترك دميتها ، وهنا أسرعت « بيسى » شقيقة « چيسى » التوأم لتخليصها فضربت « كارول » من الخلف ، وهنا توقفت « چيسى » فجأة عن العض وصاحت « لا . لا تضربيها يا بيسى » .

ولا يتضح لنا فى هذه الحالة لم كان العض مباحاً والضرب محرماً فى شريعة « چيسى » التى تريد أن تعلمها لبيسى .

مثال ٤٣ : كانت « بردچت » (سنتان وأربعة شهور) تجلس مع « ديك » (ثلاث سنوات) وقت تناول طعام الإفطار ، وكانا يتحدثان معاً مسرورين إلى أن أخذ « ديك » يلوث المائدة بالطعام ، وهنا قطبت « بردچت » وجهها مشمئزة وقالت « لا تفعل هذا أيها الطفل القذر » ولكن « ديك » أجابها « بل سأفعل » فأجابت « بردچت » عابسة « لا أحب أن تفعل هذا ... إنك ولد شرير يا ديك » « فصاح « ديك » « لا » فأجابته بغضب واحتقار « لست أحب أن أجالسك مرة أخرى بل سأجلس مع ماريو » (وهو اسم المربيـة) ، ثم أخذت صحفتها وإبريقها ، وسحبت مقعدها وذهبت إلى المربية متمتمة ساخطة على « ديك » طوال الوقت .

وفى هذه الواقعة نجد أن « بردچت » تفترض فى نفسها أنها تفوقه سوياً وأنها أحسن منه خلقاً وإن كانت أصغر منه سناً ، فقد كانت

قد أتمت تدريبها من وقت قصير ، ولكنها أصبحت فى نفس الوقت عديمة التسامح مع الأطفال الذين لم يرتفعوا إلى مستواها فى النظافة ، سواء فى الاغتسال أو فى عادات المائدة ، وقد انعكس الموقف بين هذين الطفلين بعد شهرين كما ترى من الواقعة التالية : —

مثال ٤٤ : اشتركت « بردجت » لأول مرة فى تناول الطعام مع أطفال يكبرونها سناً ولم تعرف كيف تستخدم الشوكة ، وكان صديقها « ديك » يراقبها فى بادئ الأمر ، وحينئذ قال لها « ليس هكذا يا بردجت ، أنظرى إلىّ » فراقبته « بردجت» ونقلت عنه بدقة طوال مدة الطعام .

والمثالان الآتيان يوضحان كيف أن اعتبار الطفل لغيره — وهو اعتبار أساسه الملاءمة بين رغباته الخاصة — يؤدى إلى أعمال من التضحية والتسامح الحقيقيين تزول معهما روح العداء فى هذه الأحوال ، فلا يبقى لها أثر ، وتتحول من النقيض إلى النقيض .

مثال ٤٥ : كان « سام » (٢١ شهراً) يمسك بقطعة من الورق يختبئ بها وجهه ويلعب لعبة الاستخفاء (الاستغماية) : ولكن « صوفى » (٢٠ شهراً) صاحت تطلب هذه الورقة فقسم « سام » الورقة قسمين أعطاها أحدهما ، وأخذ الطفلان يلعبان معاً فى سعادة ويتضاحكان فى صفاء .

مثال ٤٦ : رجع « جفرى » (سنتان وأربعة شهور) من نزهته

يحمل كتابا جديدا كان قد أهـدى إليه وكان فرحاً به يريه لـكل إنسان ، وعندما شاهد « تدى » (سنتان وشهر) هـذا الـكتاب الجميل خطفه منه فبكى «چفرى» وجرى وراءه واستعاد الـكتاب فأخذ « تدى » يصرخ بدون هوادة حتى أعاد جفرى الـكتاب إليه ثانية ، وهنا توقف عن الصراخ ، ولـكن چفرى لم يجرؤ على أخـذه منه ، فجلسا يتسليان به إلا أن « تدى » احتفظ بالـكتاب إلى آخر اليوم .

الصداقة بين الأطفال

المعتقد أن الصداقة الطويلة الأمد لا تنشأ بين صغار الأطفال فى الظروف العادية إلا نادراً جداً ، أما الصلة المستمرة فتكون عادة بين الـكبار أو الأطفال الأكبر نسبيا . ويتخذ رفقاء اللعب المتساوون فى السن الصداقة وسيلة إلى اللعب وحسب ، وهذه تزول بانتهاء الغرض المؤقت منها وهو اللعب . ولـكن الحـالة فى الملجأ تخالف ذلك إذ نلاحظ حالات تستمر فيها الصداقة بين الأطفال بضعة أيام أو أسابيع وربما تدوم بضعة شهور . ومما لا شك فيه أن رفقاء اللعب لا يختارون خبط عشواء ، إذ يبدو أن الرفيق فى اللعب الجماعى لا تقل أهميته عن اللعبة نفسها ، وأكثر ما يدوم هذا النوع من الزمالة بين كل اثنين أو توأمين يعيشان فى ملجأ ، ومن المهم أن نلاحظ أن هـذه الزمالة الطبيعية التى تنشأ بين رفيقين تنمو أيضا بنفس الطريقة إلا أنها أقل كمًّا عند كثيرين من أطفال الملجأ .

مثال ٤٧ : أصبح «ريجى» (من ١٨ — ٢٠ شهرا) و «چفرى» (من ١٥ — ١٧ شهرا) صديقين حميمين وكانا يلعبان معاً على الدوام وقلما كانا يعبآن بطفل آخر ، وقد دامت هذه الصداقة نحوا من شهرين إلى أن رجع «ريجى» إلى منزله فافتقده «چفرى» كثيرا ، وقلما كان يلعب أثناء غيبته . وازداد امتصاصه لأبهامه أكثر من المعتاد

مثال ٤٨ : كوّنت « صوفى » (١٩ شهرا) مع «لارى» شركة بناء ، وكلما بدأ أحدهما عمله فى البناء لحق به الآخر بسرعة فتبادلا هـذا العمل بأن يضع كل منهما لبنـة بعناية فى البرج وينتظر حتى يضع زميله لبنته ، وقد استخدما فى ذلك نحواً من ١٠ أو ١٢ لبنة ، وكانا جدّ سعيدين بهذه الزمالة .

مثال ٤٩ : أحبت « صوفى » (١٩ شهرا) أن تجلس فى خزانة ملابس معينة ، وعندما رغبت فى أن يشاركها فى ذلك زميل ، وكان هذا الزميل المناسب قريبا منها ، نادته بحماسة قائلة « متسع . متسع » وأشارت إلى المكان الخالى بجوارها ؛ وقد اعتادت أن تدعو « إدت » (٢١ شهرا) أو « آنجس » (١٨ شهرا) لتجلس بجوارها — وحالما كان يجلس الطفل الذى تدعوه كانت تخبط الأرض برجلها ويشاركها زميلها فى ذلك . وإذا حاول طفل غير مرغوب فيه أن يجلس بجوارها فى الخزانة دفعته عنها بسرعة قائلة بصوت مرتفع « لا . لا » .

مثال ٥٠ : كانت « بيسى » (٢٢ شهرا) خاضعة تماما «لتوم» (سنتان) وظلت تساعده أسابيع فى عمله وتشاركه ألعابه ، وتحمل

اليه لبنات الطوب عندما كان يبنى ، أو تضع له المقاعد إذا لعب لعبة القطار ، وكان يقدر لها خدماتها ويقابلها بالمثل من حين لآخر ، مثال ذلك أنه عندما حاولت « بيسى » مرة أن تصمد على مقعد فساء موقفها ، ظهر فجأة وأمسك لها المقعد

مثال ٥١ : كان عدد من صغار الأطفال يلعبون على الأرض ، وعندئذ أخذت « صوفى » (١٥ شهراً) تصرخ بشدة إذ أوقعها على الأرض طفل آخر ، وظلت تواصل الصراخ ولم يلهها عنه شيء مطلقا ، فأقبل عليها « تيرى » (٢٠ شهرا) وتفرس فى وجهها ، ولكنها لم تعره اهتماما ، واستمرت فى الصراخ فتحير « تيرى » لذلك وأخذ يهز رأسه بشدة إلى أن ارتطم بالأرض وهو يجلس فضحك ، فتوقفت « صوفى » عن الصراخ لحظة ثم عاودت الصراخ من جديد ، وهنا نهض « تيرى » وهز رأسه ثم عاد فجلس وهو يرتطم بالأرض مقهقها ، فابتسمت « صوفى » ونسيت صراخها ، وقد كرر « تيرى » هذا الدور أكثر من أربع عشرة مرة حتى خارت قواه ، ودار رأسه تماما وانفجر الطفلان بالضحك ، كما سر بقية الأطفال ، ولكنهم حالما اقتربوا منهما أوقفهم « تيرى » ، بل دفعهم واحداً بعد الآخر إلى الخلف ليعود إلى الضحك مع صوفى وحدهما .

أمثلة من الألعاب الحبية والحنو والعطف

تكشف الأمثلة الآتية عن تصرفات الأطفال التى يصعب تمييزها عن مظاهر الحب والعشق بين البالغين .

مثال ٥٢ : دخلت المربية غرفة الاستراحة أثناء ضجعة الأطفال فى الظهيرة فوجدت «پول» (سنتان) «وصوفى» (١٩ شهراً) واقفين عند طرف سريرهما يقبل أحدهما الآخر فسرها ذلك وضحكت ، فأدار پول رأسه وابتسم لها هنيهة ثم عاد فتناول رأس « صوفى » بين يديه وأشبعها لثماً ، فابتسمت « صوفى » لذلك وبدا عليها السرور .

مثال ٥٣ : وقد كان لهــذا المنظر الذى مر بنا بين « صوفى » و« پول» ما بعده ، فقد كانت لعبة «صوفى» المفضلة دمية سمراء ، وعرف « پول » أن فى مقــدوره أن يضايقها إذا أخذ دميتها وأن يسعدها إذا ما ردها إليها ، وبعد مضى خمسة أيام على حادث التقبيل الذى ذكرناه ستخدم هذه الفكرة ليجذب انتباهها اليه خاصة فأخذ الدمية وابتعد بها إلى الطرف الآخر من الملجأ ، فأخذت « صوفى » تبكى ولــكنه عاد فقدمها إليها فانفرجت أساريرها ، وقــد كرر ذلك عشر مرات على الأقل فى هذا اليوم نفسه .

مثال ٥٤ : خرجت «إيفى» (٢٠ شهرا) و«أنييس» (١٥ شهرا) فى عربة الأطفال للنزهة وظلتا تلعبان سويا وتقبل إحداهما الأخرى وتتعانقان معظم الوقت . وكانت «إيفى» هى التى تبدأ بذلك المرة تلو المرة فتستجيب لها «أنييس» وكانت الطفلتان تضحكان مسرورتين .

مثال ٥٥ : وقفت « صوفى » (٢٠ شهرا) فى أحد أركان الملجأ تتطلع إلى « لارى » (١٩ شهراً) فلاحظ ذلك منها وتقــدم إليها

قائلا « نعم . نعم » فأحاطته « صوفى » بذراعيها وظلا كذلك برهة .

مثال ٥٦ : كان « توم » (٢٠ شهراً) و« ستيلا » (١٧ شهراً) يلعبان على الأرض ، وفجأة دفع توم زميلته فاستلقت على ظهرها ويداها تحت رأسها فاعتلاها « توم » وجعل يهتز فوقها . وكان الطفلان سعيدين تماماً . ثم نهض « توم » وابتعد فتطلعت إليه « ستيلا » مرة أخرى ؛ ثم نهضت بدورها ، وعندما دخل « توم » إلى الملجأ بعد الظهر رقدت « ستيلا » مباشرة على الأرض وأعادت الوضع الذى كانت عليه فى الصباح وتطلعت إلى « توم » فى ترقب ولكنها عادت فنهضت إذ لم يعرها اهتماماً .

مثال ٥٧ : كان بين « هنرى » (سنتان وسبعة شهور) « ورالف » (٣ سنوات و ٤ شهور) صداقة قديمة راسخة ، وفى ذات صباح كان « رالف » يقلب (كتاب قصص) فأشار بإعجاب إلى حرف « B » فى عنوان الكتاب وقال لهنرى : أنظر هذا هو « هنرى » وهذا أنا . وعكف كل يوم على النظر فى كتب الملجأ وكلما وجد الحرف « B » أعاد ما قاله مراراً وتكراراً : هذا هو هنرى وهذا أنا . فقد أوحى إليه الحرف « B » بصديقين يعانق أحدهما الآخر .

الفصل الثالث

إدخال علاقات الأمومة فى حياة الملجأ

من الخطأ أن نستنتج أن العواطف المختلفة عند أطفال دور الحضانة نحو رفاق اللعب الذين يماثلونهم سناً يمكن أن تعوض على الطفل ما فاته من العواطف التى يوجهها فى الأحوال العادية نحو أبويه ، ذلك أن عواطفه نحو أبويه تبقى فى هذه الحالة ناقصة غير مشبعة ، ولكن الملاحظات الكثيرة تدل على أنها كامنة فى الطفل متحفزة للعمل إذا ما ساعفتها الفرص بأقل اتصال تتيحه الظروف الخارجية ، وأكثر ما يلاحظ ذلك حين يكون الطفل قليل المعرفة بأمه ، وحين لا تتاح لا أقل الفرص لإنشاء صلات عاطفية معها .

١ — تكوين أسرات مصطنعة :

لقد قمنا مراراً بتقسيم مجموعات كبيرة من الأطفال المتقاربين فى السن إلى وحدات من ثلاثة أطفال أو أربعة أو خمسة تحت إشراف فتاة من المربيات أو المعلمات اللواتى يقمن بدور الأم الحاضنة فى الشئون المتصلة بالأمومة ، فكانت الاستجابة العاطفية الجماعية عند الأطفال فى جميع الحالات تتحول بسرعة إلى استجابات عاطفية

كتلك التى تنشأ فى الأسرة الطبيعية المستقرة ، فقد كون الأطفال صلات إيجابية قوية بمربياتهم كما كانوا فى نفس الوقت أكثر دقة من ذى قبل فى تنفيذ طلباتهن ، بل كانوا أشد رغبة فى التضحية من أجلهن . ولقد سهل فى هـذه الظروف الجديدة تنفيذ خطوات معينة فى تنشئة الأطفال كانت من قبل صعبة أو مستحيلة فى نظام الجماعة الموحدة الـكبيرة . ومن هذه تـكوين العادات مثلا ، وأصبح الأطفال الآخرون ممن ينتمون إلى نفس « الأسرة » يعاملون حينئذ بمزيج من الغيرة والتسامح وهما من خصائص علاقات الأخوة والأخوات ، إلا أن هـذا التسامح لم يشمل الأطفال الذين ينتمون إلى غير الأسرة . ولقد نما تفهم الأطفال للأسرات الأخرى بسرعة وقوى احترام كل منهم لحقوق الآخرين من حيث تملـكهم لأحد الـكبار .

وتصرفات الأطفال الصغار هى التى تفسر جميع هذه الاستجابات بينما يفصح الـكبار منهم عنها بوضوح لقدرتهم على الـكلام ، فهم يتحدثون عن مربياتهم الخاصة كأنهن أثمن ما يمتلـكون ، ويوازنون بينهن أو يفاخرون بهن على مثال ما يفعل الأطفـال الآخرون مع أمهاتهم .

وتنظم الأسرات المصطنعة عادة على أساس أن كل مربيتين تتناوبان العمل أى تحل الواحـدة مكان الأخرى فى يوم عطلتها ، ويعامل الأطفال تلك التى تحل محل الأم الحاضنة معاملة أقل درجة من حيث التملك ، ولـكنهم يعتبرونها خاصة بهم على أى حال .

مثال ١ : قال « دريك » (٣ سنوات و ٩ شهور) وهو فى طريقه إلى المنزل عقب نزهة على الأقدام : عندما تكون مربيتى « سارة » فى عطلة تحل « مارتا » محلها ، وعندما تكون « مارتا » فى عطلة تحل « سارة » محلها . وعندما وصل إلى المنزل لم يجد « سارة » فقال لتوه : لقد ذهبت سارة فعلىَّ بمارتا » . وكان « دريك » لغزاً صعباً للغاية ، فلم يمكن لإنسان أن يلمسه إلا بصعوبة ما عدا « سارة » وتليها فى ذلك « مارتا » .

مثال ٢ : تنتسب « بردچت » (سنتان ونصف) إلى أسرة مربيتها « چان» ، وكانت « بردچت» تحبها حباً جماً ، وعندما رجعت « چان » إلى الملجأ بعد أن تغيبت أياما قلائل بسبب المرض ، كانت « بردجت» تكرر وتعيد « مربيتى چان » . وذات مرة قالت الطفلة «ليليان» (سنتان ونصف) أيضاً «مربيتى چان» ، ولكن « بردچت» اعترضتها قائلة : إن چان لى وحدى ، وأما « ليليان » فلها « رَثْ » و« كيت » لها « إلزا » .

مثال ٣ : محادثة بين « بردچت » (سنتان وثمانية شهور) وبين « چفرى» (سنتان ونصف) .

عندما أبلت « بردچت» من مرض الحصبة وعادت من غرفة المرضى حيث كانت قد عزلت عن چان كانت أكثر غيرة من ذى قبل ، فلم تسمح «لچفرى» أن يذكر اسم المربية «چان» دون أن تعترضه قائلة : إن چان لى وحدى: وقد تقبل ذلك «چفرى» فى أول يوم بهدوء واكتفى بالتفرس

فى وجهها دون أن يجيبها ؛ ولكن الحالة انقلبت بعد الظهر ، إذ تفرس فى المربية جان وأنفجر باكيا ، وهنا اوضحت المربية لبردچت أنها كانت على حق تماماً فى أنها كانت لها دون غيرها وأن «لچفرى» مربيته «ساره» ، إلا أن هذه كانت مريضة آنئذ ، وأن عليها أن تعنى «بچفرى» إلى أن تشفى «ساره». وقد أظهرت بردچت فهماً للموضوع ، وأخذت تلعب دون أن تذكر شيئا عن هذا الأمر مطلقا حتى كان وقت تناول الشاى ، فتحولت فجأة إلى « جفرى » وقالت : إن جان لى أنا « وسارة » لك أليس كذلك ؟ إنه كذلك . وعندها قال «چفرى» حسناً سارة لى : وفى اليوم الثانى فى وقت الغذاء ، حين كان الأطفال يجلسون متجاورين استأنفت « بردچت » الموضوع ثانية لكن فى هياج شديد : إن جان لى فضربها «چفرى» بملعقته وأجابها بصوت حانق : لتكن لك فسرت « بردچت » لنجاحها هذا حتى نسيت أن تشكو من الضرب الذى نالها .

والأخذ بتقسيم الأسرات إلى مجاميع يسبب تحفظ الأطفال واستياءهم إلى حد ما مما يظهر أثره بنوع خاص إذا ما حاولت حاضنة إحدى الأسر أن تساعد أطفال أسرة أخرى أو تعنى بهم ، ولكن نتيجة هذا التصرف تنحصر فى بعض الأعمال اليومية الدائمة مثل خلع الملابس والاستحمام

مثال ٤ : عند ما سألت المربية « إلزا » الطفلة « كرستين » (٤ سنوات) ذات ليلة هل ترغب فى أن تغسل لها جسمها ، أجابتها

« كرستين » لا. لأنك لاتعرفين كيف تغسلين جسم البنات فأنت لاتعرفين إلا أن تغسلى جسم بوب ومارتن .

مثال ٥ : عندما أرادت المربية « أرسولا » ذات ليلة أن تغسل جسم كيتى رفضت قائلة : أنت ترغبين فى غسل « چيسى » و « بيسى » وأعادت هذا القول عدة مرات مصرة على رفضها .

فهذه التنظيمات العائلية التى وصفناها آنفا مقصورة على رعاية الأم للأطفال ، ولكنها لا تشمل رعاية ما يشغلهم أثناء النهار ، على أن بعض الأطفال يصرّون على ألاّ يعنفهم أو يصلح أخطاءهم إلا المتصلون بهم .

مثال ٦ : نبهّت « بردچت » (سنتان و ٨ شهور) مربية غير مربيتها إلى خطأ ارتكبته ، وأنه لم يكن حسنا منها أن ترتكبه ، فلم يكن من « بردچت » إلا أن حدجتها بنظرة قاسية وضربت الأرض بقدمها وصرخت « عزيزتى چان » : وكان ذلك فى يوم عطلة «چان»

مثال ٧ : طلبت إحدى المربيات إلى « تونى » (أربع سنوات أن يبتعد عن أسكفه النافذة وكان واقفاً عليها فاستشاط غضباً لذلك وأجابها « لا تخاطبينى بهذه الطريقة . إن الأخت « مارى » لا تفعل مثلك . يجب عليك أن تقولى إنزل من فضلك عن إسكفة النافذة .

مثال ٨ : يظهر بعض الأطفال فهماً كبيرا لغيرهم من هذه الناحية ويعبرون بعبارات قوية عن ذلك الفهم :

غضب « دريك » (٣ سنوات) من المربية « إلزا » فهددها قائلاً « سألقى بك فى الماء » (وهو أكثر ما يهدد به الأطفال غيرهم) فأجابته « شيرلى » (٤ سنوات و ٩ شهور) « لا يمكنك أن تفعل ذلك يا دريك لأن بوب (وهو ينتمى إلى أسرة إلزا) سوف لا يجد له « إلزا » أخرى . وهو محتاج إليها »

مثال ٩ : قالت « شيرلى » (٤ سنوات ، ١٠ شهور) ذات ليلة وهى فى فراشها : لى أم لطيفة أحبها كثيرا وكذلك مسز (ب) أم لطيفة أيضا وكذلك مسز (ج) ، ولكل الأطفال أمهات لطيفات ولكن حنة (وهى مربية بالملجأ) يجب أن تأتى لترى صاحبتها « كيتى » فى أيام الآحاد وتحضر لها كعكا ، إن « كيتى » محرومة من أم لطيفة ومن أجل ذلك خصت « بحنة » .

٢ — الطبيعة النوعية ونتائج اتصال الطفل بأمه

تثبت التجارب الكثيرة أهمية إدخال هذه الصلات بين الطفل والحاضنة فى دار الحضانة ، والطفل الذى يربطه بالكبار هذا النوع من الملاقات لا يكون معداً لتقبل آثار التعليم أحسن قبول وحسب ، بل يظهر أيضا تقبله هذا بما يبدو على وجهه من آثار واضحة مختلفة . وتنمو فيه صفات الفردية وتتكشف شخصيته كلها إلى حد يدعو إلى الدهشة ، ولكن يجب مع ذلك أن نسلم بأن إدخال هذا النوع من التنظيم الأسرى كثيراً ما يبعث على الاضطراب والتعقيد فى دور الحضانة ،

فالأطفال الذين نجحوا فى قبول أحوال الجماعة وتكييف أنفسهم بمقتضاها يصبحون فجأة أطفالا ماحين غير محتملين أو معقولين ، كما أن غيرتهم وحرصهم على الاستئثار وحدهم بمن يحبون قد لا يقفان عند حد ، وسرعان ما يصبح هذا التعلق الشديد أمراً محتوما كلما كانت صلة الأمومة قديمة ، اللهم إلا إذا كان الانفصال بين الطفل وأمه الحقيقية أو بينه وبين حاضنته قد تكرر حدوثه من قبل ، فكلما هجست نفس الطفل بالانفصال مرة أخرى ازداد تعلقه بها ، وقد تتوقف ألعاب الأطفال ونشاطهم عندما يرقبون فى قلق مبارحة مربياتهم للغرفة سواء كان ذلك لمهمة ضرورية أو فى ساعة الراحة أو عند ما يشعرون بعلاقة ودية بينها وبين أطفال آخرين ينتمون إلى أسرة غير أسرتهم . مثال ذلك أن « تونى » (٣ سنوات ونصف) لم يسمح لمربيته «مارى» أن تستخدمه فى مساعدة الأطفال الآخرين ، وكذلك « جم » (بين سنتين وثلاث سنوات) كان ينفجر باكيا كلما تركت مربيته المشرفة عليه الغرفة ، وكانت « شيرلى » (٤ سنوات) تغتم غما شديداً ويصيبها الاضطراب إذا ما تغيبت مربيتها « ماريون » لسبب من الأسباب . والواقع أن هؤلاء الأطفال جميعاً كان عليهم أن يناضلوا ضد هذه الانفصالات الدامية فى قصة حياتهم .

ومن أعظم ما يسترعى الاهتمام أن نلاحظ الفرق بين تصرف الأطفال فى علاقاتهم الفردية بحاضناتهم اللواتى نيط بهن رعايتهم

من ناحية ، وعلاقتهم بمربية مجموعة الأطفال من ناحية أخرى ، لأن هذا كثيرا ما يذكرنا بالفرق بين تصرفات الأطفال الذين ينشأون بين أسراتهم وتصرفاتهم عندما يلحقون بالقسم الخارجى فى دور الحضانة ، فسلوك هؤلاء الأطفال يكون فى دور الحضانة حسناً واجتماعيا إلى أبعد حد ، حتى إذا ماعادوا إلى منازلهم أصبحوا مقلقين إلى أبعد حد . وليس هذا كما يظن بعض مربيات دور الحضانة راجعاً إلى جهر الأم بطريقة معاملة الطفل وعلم المربية بهذه الطريقة ، وإنما يرجع إلى الفرق بين استجابة الطفل العاطفية لكل من أمه ومعلمته ، وهو فرق نجد صداه فى استجابة الطفل لأمه فى الأسرة واستجابته لمعلمة المجوعة فى دار الحضانة الداخلية ، فعلاقة الأم — أو من تقوم مقامها — بالطفل يوقظ عواطفه ، وهذه العواطف تبعث فى نفوس الأطفال مطالب ملحة تتطلب الإشباع . والاستجابة الباكرة الحبية الأولى من الطفل لأمه هى التى تضع أسس حياته المستقبلة المفعمة بألوان من العلاقات الحبية ، وهى ككل حب آخر تنطوى على كثير من التعقيد والصراع واليأس والخيبة .

ويعجز الطفل عادة عجزاً تاما عن التعبير عن حقيقة ما يطلبه من أمه أو حاضنته ، بل إنه ليعجز عادة عن إدراك حقيقة هذا المطلب ومداه ، فهو يستبدل بهذه الرغبة اللاشعورية الغامضة ألوانا من المسرات لا يمكن لإحداها أن تشبع رغباته حتى لو حصل عليها .

مثال ١٠ : انفصل « جم » عن أمه اللطيفة الودود وكانت سنه

(١٧ شهرا) وربى عندنا بدار الحضانة ، فقويت علاقاته بفتاتين من المربيات كانتا تتناوبان رعايته . ومع أنه كان طفلا متزناً نشيطا حسن المعشر فقد أصبح تصرفه غير محتمل فيما يختص بهذه الروابط ، فقد كان شديد التعلُّق بمن معه حريصاً على ما يملكه ، راغباً عن الوحدة ولو لفترة قصيرة ، دائم الطلب لأشياء يعجز عن تحديدها على وجه من الوجوه ، وكثيراً ما كان يُرى « جم » مستلقياً على الأرض ينتحب فى يأس وقنوط .

ولكن هذه الأعمال كانت تقف عند ما تتغيب مربيته المفضلة لديه ولو لفترات قصيرة ، فكان يصبح حينئذ هادئاً لا أثر للأنانية فيه . غير أن الحب من جهة ، والشعور الشديد بالخيبة من جهة أخرى ، كانا يبدوان ممتزجين فى حالته امتزاجاً تاماً .

مثال ١١ : أنشأ «مارتين» بعد أن التحق بدارنا للحضانة وعمره (١٦ شهراً) علاقات كالسابقة مع مربيته المحبوبة « إلزا » — وكان قد انضم إلى مجموعتها فى الثانية من عمره تقريباً — وقد امتاز بصحة بدنه وقوة بنيته وميله إلى المرح ، وكان نشيطاً خبيثا ، أما فى علاقاته بإلزا فكان يتحول إلى طفل سلبي شديد التعلق بها إذا ما أثير أقل إثارة .

وقد اشتدت هذه الحالة عند ما بلغ الثالثة من عمره ، فكان يبدو عليه كلما رجع إلى منزله أنه كان يفضل قضاء بقية اليوم مع « إلزا » . ولما لم يكن هذا مستطاعاً فقد كانت تثور ثائرته ويرمى

على الأرض يصرخ ويبقى كـذلك وقتاً طويلا . وذات مرة طفى أكـثر من ذى قبل حتى لـكأنه كان يتلمس المتاعب أينما وجدت ، وعند ما طلبت إليه « إلزا » أن يلبس نعليه أصرّ على لبس حذاءين طويلين ، وكان إذاقدموا له كعكاطلب شيكولاته ، وإذا أرادت «إلزا» أن يغتسل فى المغسل الـكبير الذى كان يفضله عادة طلب أن يغتسل فى المغسل الصغير ، ونال منه الغضب حين آوى إلى فراشه فصرف إلزا دون أن يحييها تحية المساء ، ثم عاد فصاح بها لأنها لم تقل له « ليلتك سعيدة » (وكان عقب هذه التصرفات يظل يتمتم بضع ساعات وأحياناً طوال اليوم) . وقد بدا صـباح اليوم التـالى على هذه الصورة .

قال فى وقت الإفطار إنه لا يحب « هذا السكر » الموضوع على الحاوى ، فلما سألته «إلزا» عن نوع « السكر الذى يريده » ضرب الأرض بقدمه ثم تمتم قائلا : « سكراً أ . أ . . أسود » فلما رأى أن « إلزا » ضحـكت انفجر هو أيضاً بالضحك بغتة ، ثم قال وقـد اعتراه الخجل « لا يوجد سـكر أسود » ، ثم قضى بقية يومه على أحسن حال .

مثال ١٢ : يذكر الذين اعتادوا قراءة تقـــاريرنا الشهرية الأعمال المشابهة لما ذكرنا والتى نشأت بين « توم » (وسنه حينئذ ٣ سنوات ونصف) وبين مربيته « الأخت مارى » ، وذلك فى بداية تآلفهما ، إذ كان يصرفها من غرفته إذا ما قدّمت نفسها لمؤانسته

ثم يعود فيناديها فى قنوط حالما تتركه ، وكان يتهمها بأنها آذته بطريقة ما أو أهملت علاج جروحه أو توعكاته البسيطة . وكان يستيقظ فى منتصف الليل يشكو إلى المربية المسائية أن « الأخت مارى » لم تحيه تحية المساء . والواقع أن « الأخت مارى » تكون قد حيته فعلا وعنيت به ، وأجابت رغباته بأحسن ما تستطيع . ولما ناهز تومى الرابعة والنصف من عمره كان يجتاز مرحلة مؤلمة له نشأت عن زواج والده للمرة الثانية ، فكان يمتنع فجأة عن لعبه يبحث عن مربيته ويكرر قوله لها « أريد أن أقول لك شيئاً » ، فاذا ما طلبت إليه أن يفصح عن هذا الشىء أغلق عليه — وكان يقول لها أحياناً « أريد أن أقبلك » ولكن يتضح أن القبلة لم تكن هى السبب الحقيقى ، أما الحقيقة فلم يكن يعرفها .

وهذا النوع من تصرف الأطفال لا يُرحَّب به بطبيعة الحال ، لأنه يكون بمثابة إقلاق للأطفال الآخرين ، وكثيراً ما ينتقد هذا التصرف بقية الأعضاء فى هيئة دار الحضانة نقداً لاذعاً ، إذ كانوا يشعرون حقاً بأن هذه المربية « قد أفسدت » هذا الطفل ، وأنه كان يمكن أن يكون أفضل مما كان أى أكثر هدوءاً إذا ما أبعدت عنه هذه العلاقات الودية وما فيها من تعقيدات مزعجة . وهذا لا يصدق إلا إذا فهمنا منه أن فى وسعنا جميعاً أن نكون خيراً مما نحن عليه أى أكثر تعقلاً مجردين من العواطف . والحق أن إبعاد الصلات العاطفية المعقدة ليس هو الذى يساعد على

نمو الطفل نمواً طبيعياً ، بل الذى يساعد عليه هو نجاحنا فى معرفة الطرق التى تعالج بها مثل هذه العواطف ، وهو أمر شاق ومزعج فى أغلب الأحيان .

وحتى العلاقات الآمنة المستقرة التى تربط الطفل الصغير بوالديه ملأى كما قلنا آنفاً بالمتناقضات ، وأسباب الخيبة والميول غير المشبعة . فالطفل يريد أن يتملك وحده والده أو والدته بكل ما يعنيه التملك من معنى ، وليس هذا فى مقدوره بالطبع . والطفل يعد تحديد مطالبه فشلا له وخيبة أمل ، كذلك رفض العلاقات الجثمانية الوثيقة يولد فى نفسه امتعاضاً وشعوراً بالحرمان ، يضاف إلى ذلك شعور الطفل بضآلته وعدم كفايته الذى ينجم عن مقارنته نفسه بأحد أبويه الذى يماثله جنساً .

والموضع الأول للأسرة هو البناء الذى تلتمس فى حدوده غرائز الطفل وعواطفه طريقها إلى أغراضها الأولى . ولا يستطيع الطفل مطلقاً أن يحصل على هذه الأغراض كاملة ، ولكنه عند إظهار شعوره لأول مرة يتعلم « الحب » كما يتعلم مكافحة قواه الغريزية ، وبذا يضع الأسس التى تقوم عليها أخلاقه ، وهو عمل يتطلب قدراً كبيراً من المتاعب .

وهذه العلاقة الوالدية الأولى هى التى يكررها الطفل تارة بدرجة مصغرة ، وتارة أخرى مكبرة بالنسبة لمن يحتضنونه إذا ما قيضت له هذه العلاقة بدور الحضانة .

٣ — نتائج أخرى لعلاقة الأطفال بالحاضنة فى دور الحضانة

إن إدخال علاقة الأمومة فى دور الحضانة ، مهما بدا من ضرورته ، يجلب معه خطر الانفصال المتجدد ، فضلا عما يصحبه من عناصر القلق العاطفى التى وصفناها ؛ فالمربيات يتركن الخدمة بين الحين والحين ، كما ينتقلن من قسم إلى آخر فى أثناء تدريبهن ، وإذا حدث هذا النوع من الانفصال بعد أن تنشأ العلاقات الودية فإنه يؤدى غالباً إلى متاعب لا تقل مرارة عند الطفل عن حرمانه الأصلى من أمه . وهنا يستعرض الطفل كافة انفعالاته المحزنة واشتياقه وحنقه التى قلنا إنها تحدث عند انفصاله من أمه . والشواهد على هذه الحالة لا تدخل تحت حصر ، وإليك مثالا حديثاً يستلفت النظر بوجه خاص .

مثال ١٣ : عاد « ريجى » الذى أُلحق « ببيت الطفل » التابع لنا فى الشهر الخامس من عمره إلى بيت والدته عند ما كان عمره عاما وثمانية شهور ، ثم عاد إلى دار الحضانة بعد شهرين وبقى فيها من ذلك التاريخ ، فأنشأ فى خلال إقامته بيننا علاقات حبية مع مربيتين كانتا تعنيان به فى فترات مختلفة ، ولكن علاقته بالثانية انقطعت عند ما بلغ سنتين وثمانية شهور من عمره ، وذلك لزواج مربيته ، فأسقط فى يده وأصابه القنوط عقب تركها له ، ولم يحاول التطلع اليها عند ما زارته بعد أسبوعين من ذلك الوقت ، بل حوّل رأسه

إلى الجهة المضادة حينما أخذت تتحدث اليه . ولكن بصره لم يتحول عن الباب عند ما غادرت الغرفة وأغلقته خلفها . وعند ما آوى إلى فراشه فى المساء جلس وهو يقول « إن مارى — آن — حبيبتى المفضلة عندى ، ولكنى لا أحبها »

ولما كان لا بد من وقوع هذه الانفصالات المتجددة فقد اتخذ ذلك حجة مناهضه لإدخال التنظيم العائلى فى دور الحضانة ، إلا أن هذا النوع من الجدل خطأ ظاهر ؛ فإنه إذا كان لنا أن نختار بين أحد الشرين ، أى بين الروابط المؤقتة أو المعرضة للقطع من جهة وبين الجدب العاطفى من جهة أخرى وجدنا أن الأخير أشد ضرراً ، فهو يتيح من الأمل فى نمو الطفل نمواً طبيعياً أقل مما يتيحه الأول ، وسنوضح ذلك فيما بعد .

٤ — عمرفات الطفل التلقائية بمن يكبرونه سنا

سبق أن وضحنا أن الشعور الكامن فى الطفل بما بينه وبين والدته من صلة ، سرعان ما يبرز إذا ما أتيحت له الفرصة بتكوين الجماعات العائلية المصطنعة ، وهذه البواعث الباطنة عند الطفل لا تتريث دائما حتى يعمل لها نظام قائم على التفكير الدقيق ، بل تبرز استجابة لتصرفات الكبيرات بدون تمييز بينهن ما دمن جميعاً يقمن برعاية الطفل وقتاً ما رعاية تنطوى على الأمومة .

وقد يسهل اختيار حاضنة هذا الطفل من بينهن . على أن الأطفال قد يختارون حاضناتهم أيضاً ممن لم يكن فى تصرفهن

السابق ما أثارهم . وقد يبدو هذا الاختيار لأول وهلة غير مقصود ، والواقع أن البحث الحديث فى هذه التصرفات جميعها يكشف عن أن علاقات الأطفال التى تبدو تلقائية ليست فى الحقيقة إلا استجابة لشعور عند البالغ ، وقد لا ينتبه هذا الشخص البالغ إلى بداية هذا الشعور فى كثير من الأحيان ، أو أن أسباب هذا الشعور لا تظهر إلا بعد شىء من التقصِّى والبحث :

مثال ذلك أن فتاة مربية شعرت بجاذبية نحو طفل من أنشط الصغار فى دار الحضانة ، وعند ما فكرت فيما بينها وبين نفسها عن أسباب ذلك وجدت أن هذا الطفل يشبه أخاً لها كانت تحبه فى أيام طفولتها ، وشعرت أخرى نحو طفل بجاذبية لأن مأساته فى فقد والديه ذكَّرتها بمأساتها التى حاقت بها عند ما انفصلت عن أسرتها . وشعرت مربية ثالثة بجاذبية خاصة نحو البنات الصغيرات اللاتى كان مركزهن فى أسرتهن يذكِّرها بحالتها الخاصة فى أسرتها وما أدت إليه هذه الحال من نتائج .

وقد كانت استجابة الأطفال فى جميع الأمثلة السابقة لهذه الحالات الشعورية القاسية أن أصبحوا شديدى التعلق بغيرهم ، كأن هذه العاطفة التى ظلت خامدة إنما كانت تنتظر شرارة تنطلق من شخص مراهق يستجيب لها فلا تلبث أن تتأجج .

ومن واجب كل شخص يعيش أو يعمل على اتصال بالأطفال

أن يدرك وجود هذه النزعات العاطفية فى دخيلة أنفسهم فيمكنهم من خلال هذه الحقيقة أن يظفروا بالسيطرة عليها ، ومع أن الكبار بدار الحضانة يكونون بمثابة أهداف ومنافذ لعواطف الأطفال المتأهبة للظهور فإن الأطفال هم أيضا يجب ألا يكونوا بحال من الأحوال منافذ لعواطف الكبار الطليقة الجامحة ، سواء أكانت ذات صبغة إيجابية أم سلبية .

الفصل الرابع

بعض وجوه الإشباع الغريزى

وفشلها فى الأسرة ودور الحضانة

حاولنا فى الفصول السابقة أن نثبت حقيقة رئيسية واحـدة ، وهى أن أطفال دور الحضانة يبحثون عن أهداف يوجهون إليها كل اهتمامهم العاطفى الذى لو سار سـيره الطبيعى لاتجه نحو والديهم ، بالرغم من نمو الاستجابات الجماعية عندهم واستمتاعهم بزمالة من فى سنهم من الأطفال الآخرين ، كما وصفنا كيف يحل الـكبار فى دور الحضانة محـل الأبوين ، وواجبنا التالى هو البحث عن المدى الذى تستطيع فيه هـذه العلاقات العاطفية إشباع رغبات الطفل الطبيعية وعن مدى فشلها فى هذه الناحية .

١ — العلاقة الجثمانية بين الطفل وأمه :

من الحقائق المعروفة جـداً المعرفة أن الأطفال الصغار ينظرون إلى بعض أعضاء أمهاتهم كما لو كانت ملـكهم الخاص ، فمثلا يزاول الطفل أول تجربة يشعر منها باللذة عند ما يمتص ثدى أمه ، فإذا ما أراد استرجاع هـذه اللذة بين الرضعات فى الوقت الذى لا يكون

ثدى أمه فى متناوله فإنه يستعيض عنه بامتصاص إصبعه أو أصابعه ، ونحن نفترض أن الطفل فى بداية الأمر لا يميز بينما يتعلق بجسمه وما يتعلق بجسم أمه ، ولعل معرفة الطفل أن يده ماثلة لديه دائماً فى حين أن ثدى أمه يغيب عنه أحيانا ، لعل هـذا هو أول خطوة للتفريق بين جسمه والعالم الخارجى .

والأطفال يلعبون مع أمهم بنفس الطريقة التى يلعبون بهـا مع أنفسهم ، فالطفل يجذب شعر أمه ويلمس بأصابعه عينيها وأنفهـا وأذنيها ، أو يلعب فى وجهه ويديه ، وواضح أنه يجـد لذة فى لعبه بجسمه أو بجسم أمه ، وأحيانا يلعب فيهما على التوالى باحثاً عن هذه اللذة .

ونسوق إليك بضعة أمثلة على وحدة الجسم بين الطفل وأمّـه ، وهى تصدق أيضاً إذا ما طبقت على دور الحضانة .

مثال ١ : اعتادت « ليلى » مذ كانت سنها ١٠ أسابيع أن تلعب بأصابع أمها مدة طويلة ، ولـكن هذه الحالة قلت نسبياً عند ما بلغت الشهر السابع ، فصارت تلعب بجلجلها أو أهداب ثوبها . على أن اهتمامها بيديها قد عاودها فى الشهر الثامن من عمرها فأخـذت تلعب بيد مربيتها . وقد جلست المربية مرة دون حراك فى سرير « ليلى » التى لمست يدها وأمسكتها ثم حركتها قليلاً على التوالى وأخذت تضحك وترفس أثناء ذلك ، ثم اشتد انفعالها حتى اضطرت المربية بعد لحظة وجيزة إلى تنحية يدها ، ولم تستجب الطفلة لأى

غارض فى حياتها بمثل هذا السرور والانفعال .

مثال ٢ : كانت «روز» منذ طفولتها الأولى تمتص إبهامها قبل أن تستغرق فى النوم ، وعند ما أصبح عمرها ٢١ شهراً بدأت تلعب قبيل النوم مع مربيتها على الوجه الآتى : —

استمرت بضعة أيام تضع إحدى يديها فى فم المربية ، ثم تستغرق فى النوم ، ثم حاولت فى المرحلة التالية أن تأخذ يد المربية فتضعها فى فمها ، وكانت تفتحه ليتسع قدر المستطاع لأكبر جزء من هذه اليد الكبيرة . وفى ليلة أخرى كانت تمتص إبهامها بطريقتها المعتادة ، ثم أحنت رأسها فجأة وتناولت أحد أطراف غطائها (وهو نفس الركن الذى اعتادت أن تشد عليه بقبضتها أثناء امتصاص أبهامها) ؛ وحاولت أن تدخله فى فم المربية وهى مبتسمة راضية ثم استغرقت فى النوم .

مثال ٣ : نشأت عند « ديك » فيما بين الثانية والثالثة من عمره عادة شاذة للاشباع الجثمانى كان يزاولها قبيل النوم ، أو عند ما يرغب فى الترويح عن نفسه بعد هياج ، وذلك أنه كان يقبض على سبابة شخص ممن كان يحبهم ويشد عليها بقوة ، ويحاول أن يدفع بها بشدة إلى ركن عينه ، وكان كل جسمه يتوتر وتبدو على وجهه مظاهر السرور الفائق عند ما يفعل ذلك ، وكانت الأصابع التى يحاول أن يمسكها هى أصابع إحدى مربيات أربع كانت له بهن بوجه خاص صلات حسنة ، وكان يستعمل إصبعه من وقت لآخر ،

ولكنه كان يحاول قدر المستطاع الحصول على أحد هذه الأصابع الأخرى .

مثال ٤ : اعتاد «چفرى» ، عندما كانت سنه بين سنتين وسنتين وثلاثة شهور ، طرقا مختلفة للعب مع مربيته المحبوبة ، فقد كان إذا ما أخذت تلبسه ثيابه يتفرس فى وجهها ويتحسس عينيها بنوع خاص وهو منبسط الأسارير ، وإذا أحنت رأسها لتربط له حذاءه وضع سبابتيه فى أذنيها وضحك بمرح . ومع أنه كان قد جاوز السن التى كان يمتص فيها إبهامه بشدة فقد ظل يلجأ إلى هذه العادة كلما كانت المربية تلبسه ثيابه قبل الإفطار . ولطالما كان يرفع إبهامه محاولا أن يضعها فى فم مربيته ، فإذا ما أظهرت له عدم رضائها عن ذلك أخذ إبهامها هى فوضعها فى فمها ، وكان فى ذلك الوقت قد حفظ أول بيت من الشعر من قصيدة (BaBa Black Sheep) وأغرم بإنشاده ، وكلما استخدم الطبيب (وكان شديد الاتصال به) الملوق (آلة للكشف عن الحلق) للكشف عن حنجرته كان يفتح فمه راضياً ، ولكنه فى نفس الوقت كان يحاول أن تضع الممرضة الطرف الآخر من الملوق فى فمها .

وإنه ليختلط على الطفل الحدث الأمر بين جسمه وجسم أمه ، وطالما يحدث ذلك فيما يتعلق باللذة الناتجة عن الأكل ، وفى كثير من الأحوال تصف الأمهات فى شىء من الفخر كرم أطفالهن الصغار ، وكيف يرغبون فى أن يقدموا لهن قطعة مما يأكلون ، أوأن

يضعوا ملعقة من الطعام فى أفواههن ، وهن يدهشن عند ما يختفى هذا الكرم المبكر حوالى العام الثانى من عمرهم ليحل مكانه دور من الأنانية الشديدة يريد فيه الطفل أن يحتفظ بالطيبات لنفسه دون غيره . ولو تأملنا الأمر عن قرب لا تضح لنا أن هذا الكرم المبكر لا يستحق أن يتصف بهذا الوصف ، وليس فيه إلا نصيب ضئيل من صفة الإيثار ونكران الذات التى تظهر عند الطفل نفسه بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات نتيجة لنموه الأخلاق . فالطفل فى السنتين الأوليين من حياته لم ينبذ فى الواقع هذه المسرة التى منحها لأمه ، بل أصدق من هذا أن نقول إنه يعجز عن التفريق بين شخصه وبينها ، فهو يشعر أن السرور الذى يتيحه لها كالسرور الذى يتيحه لنفسه ، أى أن هذا الإيثار الظاهرى ليس فى الحقيقة إلا أثرة . وعند ما يخطو الطفل الخطوة التالية فى النمو وتصبح الأم فى نظره جزءاً من عالمه الخارجى يختفى بطبيعة الحال هذا المظهر الأول الشبيه « بالكرم » .

ويمكننا أن نلاحظ أمثلة لاعداد لها حتى فى أنظمة دور الحضانة ، وإليك بعضها على سبيل المثال :

مثال ٥ : كانت «ڤيولت» (١٤½ شهراً) تأكل كعكة فوضعتها مرات فى فم مربيتها المفضلة لديها كما لو كان هو فمها .

مثال ٦ : لوحظ أن « چفرى » منذ طفولته الأولى كان يجد لذة كبرى فى الأكل بنوع خاص ، وفيما بين السنة الثانية والثانية

والنصف من عمره نشأت بينه وبين حاضنته الجديدة علاقة خاصة ، فبدت عليه مظاهر الشعور « بالاندماج » ، ولم يكن ذلك بطلبه إليها امتصاص إصبعه وحسب ، بل بمشاركتها إياه لذة الأكل أيضاً . مثال ذلك أنه كان يوماً يأكل شريحة من التفاح فأمسك بطرف منها في فمه وحاول أن يضع طرفها الآخر في فمها ، ولكنه دفع فجأة بالشريحة كلها إلى فمها ونظر اليها ضاحكا وقال « ذهبت كلها » وكان السرور واضحاً في أساريره ـ ولم يسمع بهذا الحادث مع « چفرى » الذى لم يكن يطيق أن يفرّق بينه وبين طعامه . ولكنه بالرغم من نهمه الظاهر أخذ يحاول من ذلك الوقت إطعام هذه المربية من طعام غذائه كلما جلست إلى مائدته . وقد يبدو أنه قد اجتاز الدور الذى تحدث فيه عادة هذه الاستجابة ، ولكن أكبر الظن أن سبب هذا التأخر انه لم يعش مع أمه مطلقاً ، وأن هذه العلاقة بحاضنته الجديدة كانت أول علاقة قريبة مستقرة في حياته .

ليس الغرض من ضرب هذه الأمثلة الكشف عن نوع العلاقات القريبة التى تربط بين الأطفال والحاضنة في دور الحضانة ، أو ماهية الفرص التى تتيح لهم الإشباع في هذه الظروف ، بل عكس ذلك هو الصحيح ، فنحن نتخذ هذه الحوادث الفردية برهاناً على القوى الفائقة التى تتصف بها بعض الميول الغريزية عند الطفل ، هذه الميول التى تكون مختبئة عن الأنظار طالما كان الطفل في ظروف نظامية عادية ، ولكنها تكشف عن نفسها لمن يدقق

النظر إذا توفرت لذلك ظروف معينة (كتكوين الأسرات المصطنعة أو انفراد الطفل بممرضة واحدة أثناء المرض)

ومهما تكن الجهود التى تبذلها دور الحضانة لتوفر «العناية المنزلية» للأطفال ، فان الحاجة إلى إشباع هذه الرغبات البدائية تبقى شديدة جداً ، ونحن نميل إلى تخطى هذا النقص بالنسبة للأطفال الخاضعين لرعايتنا كل الخضوع ، أى الذين لا مأوى لهم ولا أمهات ؛ ولكنها تصبح واضحة فى حالة جميع الأطفال الذين تزورهم أمهاتهم ويذهبون إلى منازلهم لزيارة أسراتهم فى أوقات معينة .

وكل واحدة من أمهاتنا ما عدا المهملات اللاتى لا يبالين بأطفالهن يدللن أطفالهن ، وكثيراً ما يكون ذلك التدليل أكثر مما تتطلبه رغبة الطفل الوقتية ، وتحمله أكثر مما تتطلبه الضرورات الجثمانية . ومعظم أطفالنا يشاطرون أمهاتهم الفراش (وبعضهم ينامون مع جميع أفراد العائلة) عند ما يزورون منازلهم ، كما كانوا كذلك قبل أن يصبحوا فى رعايتنا ، فإذا ما عادوا إلى دور الحضانة عقب عطلة عيد الميلاد مثلا أى بعد نحو يومين أو ثلاثة أيام بلياليها فإنهم يشعرون بكثير من القسوة والحرمان ، إذ ينامون فى عزلة منفردين .

وما من شك فى أن بعض الأمهات يعاملن أجسام أطفالهن كما لو كانت من ممتلكاتهن الخاصة ، فلا يتركنهم وحدهم ،

ويقبلنهم كل دقيقة ، ثم يلاطمنهم ويتدخلن باستمرار فى حركاتهم أو فى عبثهم بأعضاء جسمهم ، فكأنهن لا يفترضن أن يضع الطفل أصبعه فى فمه أو أنفه أو أذنه أو يدعك عينيه أو يخدش نفسه أو يعبث بعضوه التناسلى . ولكن جميع المنبهات الجثمانية التى تتدخل فيها الأم من ناحية يحصل عليها الطفل من ناحية أخرى عن طريق تقليب الأم بيديها لجسم الطفل دون انقطاع . ولدينا من الشواهد الكثيرة ما يجيز لنا أن نقول إن ما يشعر به الطفل من وحدة بينه وبين أمه يقابله شعور الأم نفسها بأن جسم الطفل قطعة منها . ولكى نزيد هذه النقطة وضوحاً ، نقول إننا لسنا فى هذه الآونة بصدد البحث عن العلاقة المتبادلة بين الأم وطفلها ، وهل هى تساعد الطفل أو تضره ، أو عن نتائج هذه التجارب فى حياته المقبلة ، بل كل الذى نقصده هو أن نبرهن على وجود هذه الميول ، وعلى أنها تعبر عن نفسها وتشبع ذاتها إشباعاً كاملاً فى الظروف المنزلية ، وأن نموها فى دور الحضانة يقف بالضرورة كما ينقصها الإشباع إلى حد كبير . ومهما يكن من إخلاص المربيات وحنوهن فقد تعلمن ألا يخرجن عن الحدود الموضوعية ، فإن رغبن فى أن يصبن نجاحاً كثقفات فعليهن ألا يعملن على أساس مشاعر الأمومة الغريزية ، بل يجب عليهن أن ينمين اهتمامهن بالأطفال الموكول أمرهم إليهن اهتماماً أعم وأشمل فى جميع أدوار نموهم ، ويستعضن عن مشاعر الأمومة الغريزية بهذا الاهتمام .

٢ — عادات العشق الذاتي في دور الحضانة :

لقد تقصّينا في تقريرنا السنوى (عن صغار الأطفال في زمن الحرب (طبعة جورج ألن وأنوين عن العصر الحديث سنة ١٩٤٢) . فعزونا الزيادة في عادات «العشق الذاتى» عند الأطفال بدور الحضانة إلى تأثير انفصال الأطفال المفاجئ عن أمهاتهم . وما يصدق على الأطفال بعد صدمة انفصالهم عن أمهاتهم يصدق بالتأكيد على أولئك الذين عهد بهم إلى دور الحضانة منذ طفولتهم الأولى ، فرغبات الطفولة الأولى ـ كما وصفناها آنفاً ـ تصل إلى بعض الاشباع عن طريق الأم من ناحية وعن طريق جسم الطفل من ناحية أخرى . وعند ما يكون الشعور باللذة المستمد من علاقة الطفل بالحاضنة ، وهو ما يحدث على الدوام بدور الحضانة ، أقل كثيراً مما يحصل عليه الطفل عادة ، فإن لذة « العشق الذاتى » تطفو أكثر من ذى قبل وتملأ الفراغ الذى يحدث فى حياة الطفل الغريزية . فعند الأطفال الصغار يكون امتصاص الأصابع والاهتزاز ، وهزة الرأس ، فى المكان الأول ، ويصبح العبث بالأعضاء التناسلية أمراً هاماً فى دور متأخر قليلا ، ولكنه يخالف مظهره الذى عهدناه فى الطفولة المبكرة .

امتصاص الابهام :

لسنا نجرؤ على القول بأن الامتصاص حقيقة أكثر ظهوراً فى

أطفال دور الحضانة منه فى الأطفال الذين ينشأون بين أسراتهم ، لأنه يمكننا ملاحظة الامتصاص لمجرد اللذة بكثرة فى جميع الحالات . على أن هذه الحالة تكون أكثر استلفاتا للنظر حيث يعكف عليها كثير من الأطفال المجتمعين فى مكان واحد ووقت واحد . وإذا راقبنا هذه الظاهرة فى حجر الأطفال فى أى وقت من الأوقات رأينا أنه لا يوجد طفلان يمتصان بنفس الطريقة . وأن الاختلاف يشمل : (١) التاريخ الذى يبدأ فيه الطفل الامتصاص . (٢) الإصبع أو الأصابع التى يمتصها (٣) الوضع أو حركة اللعب التى تقوم بها الأصابع الأخرى أثناء الامتصاص . (٤) الوضع أو الحركة التى يكون عليها الجسم كله أثناء الامتصاص . (٥) تكرار الامتصاص وشدته عند طفل معين . (٦) التلف الذى يصيب بشرة الأجزاء التى يقع عليها الامتصاص وهكذا .

ولكن إذا لم يكن هناك إلا قليل من الفروق بين أطفال المنازل وأطفال الملاجئ فى إبان دور الامتصاص نفسه ، فإنه يوجد فرق واضح فى تاريخ انتهائه ، فأطفال الملاجئ يميلون إلى إطالة الامتصاص يتخذونه وسيلة للتنفيس عن أنفسهم خلال بضع سنين من طفولتهم ، بينما يجتاز أطفال المنازل عادة دور « العشق الذاتى » قبل نهاية السنة الثانية من عمرهم .

الاهتزاز :

يبدأ بعض أطفالنا فى الاهتزاز من تلقاء أنفسهم كلما تركوا وحدهم فى مكان محدود (مهد ، عربة ، حظيرة اللعب) أو حينما يكون الطفل منعزلا بسبب مرض معد . فهو يقذف بلعبه أو يهملها فى مثل هذه الأوقات ، وتصبح حركة جسمه الرتيبة شغله الشاغل والوحيد .

مثال ١ : كان ينقص « فريدا » فى طفولتها الأولى ما تعوده الأطفال من الاهتمام باللعب ، فكانت لذتها الوحيدة فيما بين الشهرين السادس والعاشر من عمرها أن تهز جسمها كله بحركة منتظمة . وفى الشهر التاسع كان يصحب هذه الحركة أصوات مختلفة الأنواع ، وفى الشهر العاشر انقطعت حركات الجسم ، ولم يبق منها إلا حركات الفم المنتظمة ، ولم يكن هناك نمو تدريجى فى القدرة على الجلوس أو الحبو والوقوف حين كانت حركاتها المنتظمة نشطة ، ولكن فى سن ١١ شهراً عند ما اختفى كل هذا تعلمت الجلوس منتصبة والركوع والوقوف والمشى حول سريرها ، كل هذا فى مدى أسبوع واحد .

مثال ٢ : كانت « يقى » فى سن (١٠ شهور) تهتز باستمرار فى سريرها بغرفة الأطفال ، حتى إنها نقلت إلى فرع الأطفال الذين يكبرونها سناً قبل الوقت المعتاد على أمل أن يكون فى اتساع حرية حركاتها واختلاف وسائل لهوها ما يلطف من حاجتها إلى لذة « العشق

الذاتى » . كل هذا كان يعمل فى نشاط فى وقت واحد ، ولكن بعد سنة من ذلك الوقت بدأ الاهتزاز التلقائى مرة ثانية مصحوبا بعبثها بعضوها التناسلى على أشد ما يكون عنفاً ، وذلك حين مرضت مرضاً طويلا قيد من حركاتها .

مثال ٣ : كان « توم » (من ٦ — ٨ شهور) يهتز باستمرار وهو بغرفة الأطفال ، فنقل إلى غرفة الأطفال الأكبر سناً (سن ٩ شهور) فقل اهتزازه مباشرة وأصبح ماهراً نشيطاً فى حركاته ، وأصبحت لديه القدرة على ضبط عضلاته . على أن الاهتزاز رجع إليه مؤقتاً بعد عام من ذلك الوقت حين أصابه مرض قيد حركاته . ولما بلغ السنة الثانية من عمره تقريباً فقد اتصاله بأمه ، إذ امتنعت عن زيارته فجأة فبدت عليه دلائل الامتعاض الشديد ، ونشأت عنده ثلاث استجابات مقلقة — امتصاص إبهامه بعنف ، نهم فى الأكل ، شغف مؤقت بالاتصال بالغرباء والعمال الزائرين .

ضرب الرأس :

نستنتج من مشاهداتنا أن ضرب الرأس يظهر عند الأطفال حول السنة الأولى من سنهم ، وهو دليل على الخيبة والغضب العاجز . فقد كان لدينا فى وقت من الأوقات طفل لا ينقطع عن ضرب رأسه ، فانتشرت هذه المادة عن طريق التقليد إلى عشرة أطفال آخرين . وتكون هذه العادة فى الغالب مصحوبة

بالصياح ، وقد يظن الإنسان فى بعض الحالات أن صراخ الطفل نتيجة للألم الذى أحدثه ضربه لرأسه بيده أو بغيرها من الأشياء ، ولـكن الملاحظة عن كثب ترينا العكس ، فالطفل يصرخ للتنفيس عن غضبه أو فشـله ، ثم يتبع ذلك بتعبير أشد عنفاً أى بضرب رأسه بشدة .

مثال ٤ : كلما كان « سدنى » (١٣ شهراً) يقاوم فى أمر من الأمور كان يرتمى على بطنه ويضرب رأسه مراراً بالأرض ويصرخ .

مثال ٥ : كان « كرستوفر » (١٤ شهرا) يضرب رأسه بعمود السرير باستمرار كلما غضب ، ولما بلغ (١٥ شهراً) ومرض ثم شفى كان يفعل ذلك دائماً وبطريقة قاسـية حتى إن المربية التى كانت تشرف عليه خشيت أن يحدث بنفسه ضرراً بليغاً .

مثال ٦ : ضرب « شارلى » (١٣ شهراً) رأسـه فجأة برجل المائدة عند ما كان يحبو حول الغرفة ، فتوقف فى دهشة ، ونظر إلى رجل المائدة محاولا أن يضرب رأسه مرة أخرى ، ففعل ذلك بهدوء فى المرة الأولى ، ثم اشتد واشتد فى المرات التـالية فى كثير من الإصرار .

ولما بلغت سنه (١٦ شهرا) عاود ضرب رأسـه ، وكان ذلك فى اليوم التالى لإصابته بالتهاب رئوى ، ولـكنه أقلع عن هـذه العادة بعد أسبوع .

مثال ٧ : « بابت » (١٢ — ١٦ شهرا) : فى سن ١٢ شهرا

كانت أول الأمر إذا وضعت على الأرض لتحبو تترك رأسها يميل إلى الأمام حتى يسقط مرتطماً بالأرض ، وكان يظن أن ذلك علامة على التعب والإعياء ، وبعد بضعة أيام كانت تضرب رأسها مرات حتى تترك آثاراً حمراء ، فمنعت عن ذلك ، ولكن كان من العسير أن يحول انتباهها إلى شيء آخر ، فكانت تضرب رأسها بحوض الماء ، فيبدو عليها الدهش لأنها لم تشعر بمثل ماشعرت به عند ما كانت ترتطم بالأرض . فأقلعت عن ذلك .

وبعد بضعة أيام ضربت رأسها بالأرض ضربا متواليًا لدرجة أنها حجزت بعيدة عن الأرض عدة أيام ، وفى سن (١٤ شهرا) ضربت رأسها بالأرض بقوة أثناء وجودها منفردة .

وفى سن (١٥ شهرا) عندما وضعت فى سريرها لتنام على الرغم منها ، ألقت بجسمها على حاجز السرير ، وأخذت تضرب به جسمها ورأسها باستمرار ، وعند ما كان الأطفال يأخذون منها لعبها أو يهاجمونها كانت تضرب رأسها فى يأس ، وكانت تنافس أحيانا طفلا آخر فى الاستحواذ على لعبة ، ثم لا تلبث أن تتوقف ثم تستعيض عن ذلك بضرب رأسها .

وعند ما شغفت « بكرستوفر » (١٧ شهرا) كانت تنطح رأسه برأسها ، ولكن فى رفق . وفى شهرها السادس عشر ارتمت على الأرض ، وضربت بها رأسها مرات متوالية حين لم يسمح لها بأخذ لعبة طفل آخر .

وألقت بنفسها على الكلأ بالحديقة فى إحدى حالات غضبها ونكست رأسها إلى الأرض ولكنها لم تمس الكلأ ، وبعد أسبوعين من ذلك ضربت رأسها ضربة واحدة ، ثم امتنعت بعد الضربة الأولى ، وسارت على أربع وهى منكسة الرأس إلى مكان آخر خال من الكلأ حيث ضربت رأسها بالأرض مرتين .

مثال ٨ : لم يعتد « چاك » (١٦ شهرا) ضرب رأسه بالرغم من أن كثيراً من الأطفال فى مجموعته كانوا يزاولون هذه العادة ، فلما وقع نظره مرة على صورته فى زجاج الباب تطلع خلف الباب ، أولا كأنه يريد شخصه الثانى وحينئذ أخذ يناطح صورته مبتسما ، وكرر ذلك ثمانى مرات فى سرور ظاهر .

مثال ٩ : كانت روز (٢١ شهراً) تعمد أحياناً إلى الركوع وضرب رأسها بشدة عدة مرات على الأرض بدون سبب ظاهر ، وقد نهيت عن عمل معين وهى فى سن (٢٣ شهراً) فاستدارت وضربت رأسها بمائدة صغيرة ثلاث مرات بسرعة ثم اعتدلت بهدوء ، وعند ما منعت من جذب شعر طفل آخر ارتمت على الأرض وضربتها برأسها بعنف نحو أربع مرات أو ست . وعند ما طلب إليها إرجاع لعبة طفل إليه أطاعت فى شىء من الممانعة ولكن دون بكاء ثم استدارت كأنها تبحث عن شىء وأمسكت بكلتا يديها مقعداً صغيراً وضربت به رأسها بشدة ثلاث مرات . ثم أرجعت المقعد إلى مكانه بهدوء ورجعت بعد ذلك بوجه متهلل .

الاستمناء :

لم نلاحظ حتى الآن أية زيادة فى عادة الاستمناء عند الطفل فى ظروف دار الحضانة . أما فيما يختص بالدور الثانى للاستمناء (٢½ إلى ٥ سنوات) ، فإن ملاحظاتنا لا تزال ناقصة جداً . ولكن يبدو أن هذه الطريقة التى يعبر بها الطفل عن « العشق الذاتى » تظل فى الحدود الضيقة العادية أكثر من عادات الطفل الأخرى ، كالاهتزاز وضرب الرأس ، هذا إذا صرفنا النظر عن حالات الأطفال المعضلين الذين يندفعون إلى هذه العادة بإفراط ، وقد تكون أسباب هذا الاختلاف متباينة وتحتاج إلى شرح أوفى .

الخلاصة :

امتصاص الإبهام ، والاهتزاز ، والاستمناء ، تكشف عن وظيفتها من حيث هى وسيلة لإشباع لذة « العشق الذاتى » بحيث تخطئها الملاحظة .. ولكن ضرب الرأس يختلف عن هذه من وجوه هامة ؛ ففى نواحى النشاط الأخرى ، يصبح جسم الطفل الهدف من بحثه عن الشعور باللذة ، وأما فى حالة ضرب الرأس فإنه هو الذى ينفذ فى جسمه ميوله العدوانية المفسدة ، ومع أنها فى الواقع مؤذية له فإنه بدل أن يكترث بها ، لا يهتم بما يصيبه منها ، بل يستمتع بها فعلا .
وضرب الرأس يشترك مع لذة العشق الذاتى فى عدد آخر من

الخصائص الهامة ، فكلاهما يستنفد جميع اهتمام الطفل طوال وجودهما ، وكلاهما تكرارى ، وكلاهما يميل إلى الزيادة والاشتداد فى الوقت الذى يحدث فيه ، وكلاهما قد يصل إلى الذروة .

أما الجو العائلى فقلما تصل فيه عادتا الاهتزاز وضرب الرأس عند الأطفال إلى هذه الدرجة ، وهما فى الغالب لا تلاحظان إلا فى حالات فردية نادرة ، وأحيانا عند الأطفال الشواذ ، أو فى حالات الإهمال عندما يحرم الأطفال جميع وسائل التنفيس . ولكن أطفالنا بدار الحضانة الذين زاولوا ضرب الرأس والاهتزاز ، كانوا أطفالا لا شذوذ فيهم ، أ كاملى النمو من جميع الوجوه ، ولا شك فى أنهم كانوا يمنحون قدر معقولا من التنفيس ، وعلى ذلك فمن الواضح أن الزيادة فى ظاهرتى « العشق الذاتى » ، « والإضرار بالذات » ترجع إلى حياة دار الحضانة نفسها .

التباهى عند الأطفال

رغبتهم فى أن يقدروا وأن يعجب بهم

إن معرفة الأطفال كيفية اللعب بلعبهم أو استخدام الأدوات التعليمية فى تسليتهم من غير حاجة إلى مطالبة الكبار بأن يعيروهم التفاتا ، أو أن يقـــدروهم ويمتدحوهم ، ليعدّ نجاحا تعليمياً عظيما لمدرسة الحضانة .

ولقد صنع كثير من الأدوات التعليمية الحديثة بطريقة من

اثنتين ، فإما إن تستبعد منها فكرة النجاح والرسوب (كما فى الأدوات التى يقصد منها تعليم الطفل التميز بين الأصوات والألوان والنسيج والأوزان) ، وإما أن تكون مادة اللعبة نفسها بحيث لا تترك شكا لدى الطفل فى نجاحه أو خيبته (كالتركيب والألغاز والأشكال الهندسية) . فيُستحث الطفل بهذه الطريقة إلى اختبار جهوده والحصول على الإشباع بواسطة أعمال « موضوعية » .

ويقصد بهذه الحيل التربوية مقاومة ميول طبيعية قوية فى الطفل الناشئ متأصلة فى حياته الغريزية والعاطفية . والطفل الصغير فى هذا الدور الأولى من النمو لا يحب شيئاً أكثر من الزهو ، وهو يطلق العنان لهذه الرغبة فى حياته الخاصة بين والديه ، فيؤدى هذا فى بعض الأحيان إلى شدة اضطراب ميول أخرى له ، لا تقل عن هذه أهمية .

وتشكو الأمهات باستمرار من أن أطفالهن « لا يلعبون بمعزل عنهن » ، ومن أنهم يطلبون أن يلتفت إليهم بالرغم من وجود اللعب لديهم ، ومن توقفهم عن لعبهم ليصيحوا « انظروا ماذا نفعل » ، أو انظروا « ماذا فعلت » ، وكذلك إذا تنافس عدد منهم مع آخرين فإن صياحهم « انظروا إلىّ » يتحول إلى شبه معركة صاخبة حتى ليبدو أحيانا أن إصرارهم على أن يعجب بهم غيرهم يفضل كثيراً اهتمامهم باللعب نفسه .

وهذا الميل إلى « الزهو » ، أو إن شئت أن تسميه تفاخراً أو تظاهراً ، يظهر فى الناحية التى تشغل الطفل ، أو التى يقوم فيها

بإنجاز عمل ما ، ولـكنها لا تنشأ فى هذه الناحية من حياة الطفل ، ولا تظل محصورة فيها ، وكثير من الأطفال الصغار إذا ما خلعوا ملابسهم فى المساء أو عند الاستحمام يغتبطون بعريهم فيرقصون هنا وهنالك ، ويأتون كثيراً من الحيل ويستغرقون فى ذلك وهم جد مسرورين .

وأكثر ما يظهر هذا السرور فى هذه المناسبات إذا كانت قوة المنع المفروضة عليهم فى هـذه الناحية أثناء النهار شديدة . ولـكن الأطفـال لا يستمتعون عند عرض أجسامهم عارية فحسب ، بل يستمتعون أيضاً بعرض ملابسهم وأحذيتهم الجديدة وأشرطة شعرهم وكِبرَ جسمهم ومهارتهم وطيبتهم ، بل يستمتعون أحيانا بإظهـار خبثهم أو مرضهم ، وربما تـكون إصاباتهم الجسدية موضع تفاخرهم . وقصارى القول أن ليس فى حياة الطفل شىء لا يستخدمه وقتاً ما ليفوز بإعجاب الناس أو ليجتذب انتباههم على الأقل .

وما من غلام صغير إلا وقد استعرض فى وقت ما أعضاءه الجنسية أمام والدته فى شىء من الزهو . ولمـا كان الغلام يعرف بسرعة أن هذا أمر محظور ، فان هذا العمل سرعان مايظهر فيما بعد مقـنعاً بوجه من الوجوه ، كطلب العون ، أو استلفات النظر إلى ألم أو أذى أحاق به . وهذا العرض البدائى من جانب الطفل ، يقابله من جانب الأم ميل مضاد بدائى مثله شديد التأصل فى غريزة الأمومة ، وهو ميل الأم إلى المبـالغة فى تقدير طفلها ، فالأم العادية ترى جسم طفلها

وملامح وجهه جميلة أو على الأقل مناسبة المنظر ، ومع ذلك فقد يكون الطفل مجرداً عن هـذا فى نظر شخص محايد . ونمو الطفل الجثمانى ، وضبط عضلاته ، وإن كان يسير سيراً طبيعياً فهو فى نظر الوالدين نمو يدعو إلى الإعجاب . وكذلك يتضخم فى نظرهما تقدمه العقلى العادى ، ويتخذ عنـدهما دلالة على مستقبل باهر . وكذلك الذكاء المتواضع يمدحانه دون حساب . وهذه المغالاة فى تقدير الطفل وهى الخاصـة التى تتميز بها علاقة الام بطفلها ما هى إلا اسـتجابة « للحب الذاتى » . فقد بدأ الطفل حياته وهو جزء من جسم أمه ، ولا بد أن يبقى كذلك فى السـنوات الأولى من حياته فيما يختص بشعورها هى ، ولذا يجب علينا ألا نعامله ونحكم على تصرفاته كأنه شىء منفصل عن العالم الخارجى ، بل يجب أن نعامله فى شىء من التسامح والمغالاة فى التقدير الذى يمتد أحيانا فيشمل استجاباتنا له . والأمهات يستجبن ويحكمن على تصرفات أطفالهن كذلك حكما ذاتياً كلما خيب الطفل رجاء أمه ، ولـكن هـذا يؤذى « عشقهن الذاتى » أذى بليغاً كما لو كنّ قد كشفن عن عيب ، أو أصابهن تشويه فى جسمهن نفسه .

ومن أجل هذه الحالة يجد الطفل الذى ينشأ فى ظل أسرته نشأة عادية فى أمه رفيقاً يشترك معه إلى حـد ما فى رضائه عن خيلائه بما يقوم به من تصرفات جثمانية أو عقلية ، ويستمد قسطاً كبيراً من الإشباع فى هذه الناحية الهامة من صلته بأمه . على أن هذه الزمالة

السعيدة بينه وبين أمه لايقدر لها الاستمرار، لأن الطفل كلما نما وكبر تغير موقف الأم منه ، وكثيراً ما يكون هـذا التغير فجائياً فيمنع الطفل بقسوة من استعراض تصرفاته ، وتحل المضايقة والنقد محل الإعجاب السـابق الذى يتحول حينئذ إلى المولود الجديد . ولذلك ينقلب الطفل على رغبته فى الزهو فيكبتها أو يحولها إلى عكسها ، فالخجل الشـديد والارتياب والفلظة وجميع ضروب الردع يمكن أن تحل حينئذ محل الحرية والانطلاق السابقين . ولـكن مهما يكن من أمر ، فإن رغبة الطفل فى الاستعراض إبان هـذا الدور المبكر من أطوار النمو يبقى أثرها بطريقة ما طوال حياته .

وليس من الصعب أن نلمس أن الحياة النظامية العادية قلما تترك مجالا للزهو أو إشباع هذه الميول ، فالأطفال يعيشون كما سبق القول فى حياة جماعية غير منفردين برفيق معين من الـكبار ، وليس معنى هذا ألا يحاول الأطفال العرض والمفاخرة والتظاهر كبقية الأطفال ؛ ولـكن هـذه تتجه اتجاهاً آخر نتيجة عدم الاستجابة لها وعدم إشباعها والخيبة فيها . فالطفل يستعيض عن زمالة شخص واحـد بتفاخره أمام كل غريب دون تمييز بينهم ، وقد يتحول إلى رفقائه ، أو إذا لم تسنح له الفرصة لجذب الانتباه بعمل إيجابى فإنه يوجه كل اهتمامه إلى الحصـول على نفس الرغبة بتصرف لا يرتضيه المجتمع كالتمارض أو الغضب . وكلما كون الطفل علاقة عوضاً عن علاقة الأمومة التى وصفناها يتركز ميـله إلى التفاخر فى الشخص الذى

أحبه حديثاً ، ويقوى إلى حد كبير ، ومن ثم تصبح هـذه الرغبة ساحقة القوة بحيث تـكشف عن نفسها فى أية مناسبة ممكنة .

تباهى الطفل أمام الأشخاص من غير تفريق

مثال ١ : يشاهد زوار دور الحضانة الخاصة بأطفال الحرب ، بما فيها دورنا نحن ، أن بعض الأطفال يجرون فرادى نحوهم فيظهرونهم على أحـذيتهم وملابسهم أو بعض ملابسهم الأخرى وإن كانوا غرباء عنهم لم يروهم من قبل ، ولا يبدو هذا السلوك إلا من الأطفال الظامئين إلى الإشباع العاطفى والمحرومين من والديهم .

مثال ٢ : قدم إلينا « پول » (سنتان) ولم يكن له مأوى أو صلة عائلية مطلقا ؛ وكان فى بادئ الأمر يسعى إلى جذب انتباه أى إنسان بكلمة « هالو » دون غيرها ، وعلى ثغره ابتسامة باهتة جوفاء ، يحيى بها الأصدقاء والغرباء على السواء . ولما بلغ الثالثة من عمره ظل يُرى كل إنسان ما عنده من أشياء صغيرة (كالأزرار وصغار العصى والقطع المعدنية) التى كان يجمعها أينما ذهب ، ولم يكن فى الواقع يهتم بهذه الأشياء فى ذاتها ، ولـكنها كانت تساعده على جـذب انتباه الآخرين .

مثال ٣ : كان « بوب » طفلا آخر لا مأوى له ولم يعش مع أمه مطلقا ، مر بدور شـديد من التبـاهى والاستمناء وذلك

فى سن الثالثة ، فكان يظهر أعضاءه الجنسية أمام كل شخص بدون تفريق .

تباهى الطفل بقطع الملابس :

مثال ٤ : أمسكت « روز » (١٧٫٥ شهرا) بمعطف أحد الأطفال الصغار ولفته حول عنقها ، وعندما قالت لها المربية التى لاحظت ذلك « يا لجماله ! » دارت حول الغرفة والمعطف حول رقبتها وظهرت عليها علامات السرور ، ومن ذلك الوقت حرصت على أن تلف حول عنقها أى نوع من الملابس أو الاغطية ما دامت فى متناول يدها (حتى الأغطية المبللة إن استطاعت إليها سبيلا) ؛ وكانت تنظر دائما إلى مربيتها فى تساؤل منتظرة كلمة إعجاب منها .

وعند ما بلغت (١٨٫٥ شهراً) قدم لها ثوب حريرى جديد فى مناسبة خاصة ، فلم تكد ترتديه حتى رفعت ذيله وطافت به وهى فى هذا الوضع ، فلما ارتدت فوقه مئزراً رفعت المئزر والثوب الواحد بعد الآخر ، واستمرت على عادة رفع ثوبها حتى بعد انقضاء هذه المناسبة ، وكثيرا ما كانت تنظر إلى سرتها كلما رفعت ثوبها ؛ ولم يتضح تماما هل كانت ترمى بذلك إلى أن يعجب المربيات بثوبها أو أن يرين سرتها .

مثال ٥ : كانت فريد (سنتان) كلما دخلت غرفة اللعب فى الصباح تجرى إلى أية مربية تجدها بالغرفة قائلة (ثوبى جميل . . .

جميـل) وترفع طرف ثوبها وتبـذل ما فى وسعها للفت النظر إليها بالرغم من أنها عرضت هذا الثوب نفسه عدة مرات .

مثال ٦ : كلمـا كانت « إدت » (سنتان) تضع شريطا جديدا فى شعرها ، كانت تسير ممسكة به معتدة بنفسها ، وكانت تشير إليه كلمـا قابلت مربيتها المحبوبة .

مثال ٧ : عندما كانت إيفى فى الثانية من عمرها لبست ثوبا أحمر أبيض يلائمها كل الملاءمة ، كما كان من غير شك موضع إعجاب الـكبار ، فـكانت ترفع ذيله قائلة : « جميل ... جميل ... » ؛ وكانت تفعل ذلك بكثير من قطع الملابس أو الدمى أو الأزهار ، ولـكنها لم تعن بشىء منها عنايتها بهذا الثوب .

مثال ٨ : كان لتدى (عمره سنتان وربع) شغف خاص بالقبعات ، وكان كلما أخذ قبعته الزرقاء عرضها على الأنظار مدة طويلة وحاول أن يلبسها على زوايا مختلفة ليجتذب إعجاب مربيته المحبوبة .

مفاخرة لا تتعدى علاقة الطفل بحاضنته :

مثال ٩ : كانت « بيسى » (سنتان وربع) تتصرف تصرفاً مشابهاً لذلك مع مربيتها المحبوبة ، إذ كان يظهر عليها الرضا وهى تلعب معها وجماعة من الأطفال الآخرين ، ولـكنها كانت تقف عن اللعب فجأة وترفع ثوبها قائلة « انظرى إن لى ... » ؛ وكانت تأتى كل يوم مرة على الأقل فتحتضن المربية وتقول لهـا بصوت مهتاج (انظرى

حذائى ... حذائى) وتشير إلى قدميها أو ترفع إحدى قدميها لتفحصه . وكان يحدث ذلك بنوع خاص عندما تكون المربية مشغولة بالحديث أو اللعب مع أطفال آخرين ، وكانت تظهر جزءاً من جسمها ببساطة تامة اتلفت إلى نفسها الأنظار .

مثال ١٠ : كانت « بردجت » (بين الثانية والثالثة من عمرها) تتباهى بكل طريقة مستطاعة بحذائها وملابسها أو حزامها الجديد ، وبكل شيء يمكنها عمله ، وبجميع الهدايا الحقيقية والمتخيلة التى تكون قد طلبتها من أمها . وعندما كانت سنها حوالى (سنتين و١١ شهراً) كانت تتباهى بإصاباتها بنوع خاص ، وكلما قابلت المشرفة على دار الحضانة جرت إليها فأرتها موضعاً من ذراعها أو ساقها قائلة « انظرى إلى إصابتى » ؛ وكانت المشرفة عادة لا ترى شيئا اللهم إلا آثار خدوش قديمة فى بعض الأحيان .

مثال ١١ : ظلت بريل (٣ — ٥ سنوات) سنتين تقريبا تظهر مودة خاصة لإحدى مديرات دار الحضانة وذلك بالتباهى أمامها ، فكانت تتبعها عند زياتها لمنزلها بالريف كل أسبوع ، وتمسك بيدها وتظهر لها علامات الحب المختلفة ، ولكنها لم تسأل عن شيء مادى قط ، لا الحلوى ولا الهدايا ، وإنما كانت ترجو أن تظفر بتقديرها واحترامها لما تملك ، وكانت تبدأها عادة بهذه الجملة التى لم تغيرها : « تعالى أريك ثوبى الذى أرتديه فى يوم الأحد » وكانت حينئذ تقود المديرة إلى خزانتها أو درجها فتسحب منه ملابسها بحماسة وتعرضها عليها ،

وكانت الملابس هى بذاتها فى كل مرة لم تتغير . على أن هـذا لم يقلل من رغبتها فى عرضها أو تحمسها فى قيامها بذلك ، وكانت أحيانا لاتذكر شيئا عن ملابسها وتستعيض عن ذلك بذكر جرح بسيط على طرف إصبعها .

مثال ١٢ : عندما كانت سن بوب أربع سنوات ونصف سنة توثقت علاقته بحاضنته ؛ وكان ينتهز كل فرصة ليريها أنه «ولد كبير» أو « رجل كبير » . مثال ذلك أنه كلما نزل على الدرج معها كان يتوقف غالبا قبل نهايتها بثلاث درجات أو أربع ويقول : « انظرى إلىّ الآن كيف يمكننى أن أقفز » . وعند ما حذرته بأن المسافة لا زالت كبيرة قال لها : « إنك لاتعرفين ما أقدر على عمله » وأصر على القفز فآذى نفسه . على أن هذا لم يمنعه من تكرار ذلك العمل فى المرة التالية .

المفاخرة أمام زملاء اللعب :

مثال ١٣ : كان بوب (٤سنوات) يلعب ببعض أجهزة منتسورى منفردا ، وكانت شيرلى (٤ سنوات ونصف) فى الجانب الآخر من الغرفة ترقب بعض اللعب المعروضة على الرف، وعندما وقع نظرها على صندوق صفت به أنواع من الخرز الملون قالت : « إن « آلف» فعل هذا يوما ما لأنه كان ولدا كبيرا ؛ ألم يكن كذلك ؟ » فسمع بوب كلامها وأسرع إليها وهو منفعل وقال : « ماذا فعل آلف حين كان ولداً

كبيرا ؟ » فأشارت شيرلى إلى صندق الخرز ، فتقدم بوب نحوه وأخذه قائلا : « إننى ولد كبير أيضا » ؛ ولكنه لم يأخذ فى اللعب بهذا الخرز وعدل عن فكرته بعد دقيقة ورده إلى الرف ثم واصل عمله الأول .

ومن الواضح طبعاً أن اهتمامه لم يكن بالخرز ولكن بالحصول على إعجاب شيرلى التى كانت قد أغرته بالانصراف عن عمله الأول .

مثال ١٤ : عاش « مرتين » ولديه فكرة غريبة هى أنه « رجل كبير » . وكانت سنه بين الثالثة والثالثة والنصف ، وحاول أن يؤثر فى حاضنته وفى أمه التى كانت تزوره يومياً ، وأصر على لبس أحذية عالية ، وكان يرفض خلعها أحيانا عندما يذهب إلى فراشه ، وكان يباهى الجميع بقبعة رعاة البقر الكبيرة التى كان يلبسها حتى أثناء طعام الإفطار ، ويظهر قوته بدفع الأشياء الثقيلة أو حملها مسافة طويلة ، أضف إلى هذا مباهاته بصوت عميق عال لا يناسب مطلقا مظهر الطفولة الذى كان يبدو عليه . وكان طوال النهار يردد قوله « إننى رجل كبير » أمام جميع من لم يتأثروا بمفاخرته هذه . ولم يكن فى استطاعته ترك هذا الاعتقاد حتى إذا لم يسمح المقام بذلك مطلقاً . وقد اتفق أن سُمع يوماً يتحادث مع بوب (أربع سنوات ونصف) قال بوب : « عندما كنت صغيرا كانوا يضعوننى فى عربة صغيرة » ، ولكن مارتن وقد تنازعته رغبة تقليد بوب ورغبته فى أن يبقى « كبيراً » قال : « عندما كنت صغيرا ، كنت جنديا كبيرا — وكنت أوضع فى عربة » .

انتقال الطفل من المباهاة الى الخجل :

مثال ١٥ : توضح حالة آن (ست سنوات ونصف) كيف تصبح مفاخرة الطفل البدائية متشابكة معقدة فيما بعد ، وكانت آن رشيقة الحركة بنوع خاص ، ولهذا السبب اختيرت تلميذة فى فرقة الرقص فرغبت فى أن تباهى أمام مربياتها بما تعلمته فى درس الرقص الأسبوعى من خطوات جديدة ، فإذا ما استعد لرؤيتها من جمعتهم لهذا الغرض أخفت عنهم وجهها من فورها ، وظلوا جميعا ينتظرون أن يشهدوا رقصها ، ولكنها كانت تقول لهم إنها فى الواقع لا تحسن الرقص ، فإذا ما قيل لها أن لا حاجة بهم إلى رقصها وانصرف الحاضرون جميعا عنها بدأت ترقص فى الحال ، ولكنها كانت تتوقف «أحيانا» بعد الخطوات الأولى لنفس السبب . وهذا التردد بين الخجل الواضح وبين التفاخر الأكثر وضوحاً معروف بالطبع حتى فى حياة البالغين ، أما فى حالة «آن» فكانت ترمى إلى زيادة استلفات أنظار الناس إليها .

حب الاستطلاع عند الأطفال :

لا يقل حب الاستطلاع عند الأطفال أهمية عما تقدم من الغرائز التى يرتبط بها أشد الارتباط . ومن الفوائد التى جنتها التربية الحديثة من علم النفس التحليلى للطفل ، ذلك الاتجاه الجديد نحو

بحث غريزة حب الاستطلاع عند الطفل . فبينما كانت عادة الآباء والمعلمين قديما أن يقابلوا محاولات الطفل فى سبيل المعرفة أو البحث والتمحيص والكشف بالعبوس والتقطيب ، تراهم وقد أدركوا أن هذه النواحى من النشاط نواح مشروعة لها قيمتها لدى كل طفل سوى .

وكان الأطفال فى ظل النظم التعليمية القديمة يجبرون على تحصيل معلومات لاتشوقهم ولوظلوا لا يتعاونون مع مدارسهم إلا تحت الضغط ، أما الطريقة الحديثة فى التعليم بدور الحضانة ومدارس الأطفال فتحرص على الاسترشاد بغريزة حب الاستطلاع عند الطفل ، فدور الحضانة الحديثة تزود الطفل باللُّعب التى يراعى فى اختيارها إشباع غريزة حب الاستطلاع ، فيتمكن الطفل أثناء لعبه بها من أن يبحث عن الأشياء التى صنعت منها ، وكيف تمّ تنسيق هذه الأشياء وما بداخلها ، وكيف يمكن فكها وتكوينها وما إلى ذلك .

وقد نجحت المدارس الأولية الحديثة (ارجع إلى كتاب ج . ل هل : المدرس تحت التمرين — مقدمة فى الجغرافيا والتاريخ والرياضيات والعلوم — طبعة جامعة اكسفورد) فى إيجاد طرق تحول بها جميع المعلومات الضرورية بما فى ذلك التاريخ والجغرافيا وعلوم النبات والحيوان والكيمياء من مواد شكلية نظرية إلى غذاء يشبع غريزة حب الاستطلاع النهمة عند الطفل الصغير . ونتيجة ذلك أن أطفال هذا النوع من دور الحضانة والمدارس الأولية يتعاونون معها تعاونا اختياريا تاما . وليس هذا التعاون من هذه الناحية

من الحالات التي يضطر فيها الطفل إلى أن يوفق بين رغباته ورغبات الأكبر منه سناً ، بل إن هذا النجاح الجديد فى طرق التعليم يرجع إلى أن « عالم الكبار » قد واءم لأول مرة بين طرق التعليم وطبيعة الطفل .

على أن الموقف يصبح أقل نجاحاً إذا كان مرتبطاً بمظاهر غير سامية لغريزة حب الاستطلاع عند الطفل . وهذه الميول الغريزية — كما ذكرنا من قبل عندما كنا نبحث فى موضوع التباهى ليست مقصورة على عالم اللعب أو العمل ولا هى ناشئة عنه ، بل تنطلق دون تمييز إلى كل ما يحيط به فى عالمه الخارجى ، وتلح فى التنفيس عن نفسها فى جميع المحسوسات والأشياء التى لا يقصد بها أن تفيده على وجه من الوجوه . والطفل الذى يعطى دمية أو كرة أو أنبوبة يجد لذة فى فتحها والكشف عنها المرة بعد المرة حتى يصل إلى أصغر جزء فيها ، والدافع الذى يحفز الطفل إلى قبول هذه اللعبة راضياً قد يحفزه إلى فتحها وتحويل جميع ما تصل إليه يده إلى قطع صغيرة ، كحقيبة السيدة إذا تركت فى مكان بعيد عن الملاحظة ، أو محتويات سلة الخياطة ، أو الدمية المصنوعة من الخزف الثمين . أما الأطفال الكبار فيعملون هذا العمل فى الساعات المنبهة والأجهزة اللاسلكية وآلات الخياطة بما فيها من قطع عدة تثير اهتمامهم . وهذه الضروب من النشاط لا تقابل من الطفل بالترحيب بل ينهى عنها وتمنع لأنها مفسدة ؛ وعلى هذا المنوال يكبت الكبار فى الطفل كثيرا من روح

المغامرة والـكشف عند الطفل لأنها تعرض حياته للخطر . وتكون غريزة حب الاستطلاع عند الأطفال أكثر مما سبق إقلاقا للـكبار ، فهم لا يرحبون بها فى أدوارها الأولى حينما تكون استطلاعا جنسيا موجها مباشرة نحو الجسم والصلات الوثيقة بين الأبوين . والطفل الصغير يظهر كل ما يستطيع من الأدلة على رغبته فى معرفة كل شىء ، فهو يتساءل عن هيئة أبيه وأمه إذا ما كانا عريانين ، أو عندما يكونان فى الحمام أو المغسل ، وعمـا يفعلان عندما يضمهما فراش واحد ، وعن المقصود بالزواج ، ومن أين يأتى الأطفال ، وكيف يولدون ، وما الفرق بين الأولاد والبنات .

والآباء المستنيرون ذوو العقلية الحديثة الذين يحاولون إشباع حب الاستطلاع الجنسى عند أطفالهم بالتافه من المعلومات يدهشون ويتضايقون لـكثرة الأسئلة التى يلقيها الطفل فى غير هوادة ، إذ ينتقل من سؤال إلى آخر حتى يصبح ما يطلبه الطفل من الإجابة بعيداً كل البعد عما قصد إليه الوالدان ، فإذا ما رفضا الاجابة عن أسئلة الطفل فهو لا يدخر جهداً فى سبيل الوصول وحده إلى ما يريد ، فإذا حرّم عليه أن يسأل عن هذه الأمور الدقيقة فإن ما فى طبيعته من حب للاستطلاع إما أن يخمل ويتبلد (بما فى ذلك الأسئلة المرغوب فيها) وإما أن تتحول غريزة حب الاستطلاع بشكل عنيف إلى أمور لا خطر فيها ، وينتج عنه ذلك التيار القاهر المستمر من الأسئلة التى يكون ظاهرها عديم المعنى والتى طالمـا أدت إلى قنوط الوالدين ،

وتلك حالة معروفة لا تخفى على إنسان .

وعندما يفشل الآباء فى إجابة أطفالهم إجابات مقنعة من غير أن يفرضوا عليهم هذه القيود الثقيلة ، فإن الظروف العائلية نفسها تمد الطفل بما لا حد له من إشباع لغريزة حب الاستطلاع ، ولا بد أن يلاحظ الطفل أباه وأمه عن كثب عندما يستجيب أحدهما للآخر ، والتعبيرات المختلفة التى تظهر على وجههما ، وما يتلقفه من حديثهما والهمس الذى يسمعه ليلاً ، كل هذه العناصر تساعده على أن يتخيل نوع العلاقة القائمة بين والديه . .

ويستطيع الأبوان أن يساعدا الأطفال على إشباع رغبتهم فى المعرفة أو أن يحولا دون هذه الرغبة ، ولكنهما لا يستطيعان أن يمنعاه فى الظروف العائلية من إشباع هذه الغرائز إلى حد ما .

ويشاهد أيضا أن أكثر الأطفال معرفة بهذه الأمور هم الذين ينتمون إلى الطبقات الفقيرة حيث المساكن ضيقة وحيث غرف النوم والأسرة لا تترك شيئاً من علاقة الأبوين الزوجية خافية عنهم ، وكلما ازدادت حرية الأطفال فى الخروج إلى الشارع اتسع مجال كشفهم لهذه الناحية ومعرفتهم بها . أما فى الطبقات الراقية فالأطفال يعيشون بمعزل عن والديهم ، ولا يسمح لهم بالجرى فى الطرقات ، وتفرض على اجتماعاتهم وآداب سلوكهم رقابة تحول بقوة دون إشباع غريزة حب الاستطلاع عندهم ، ويتحول الأطفال فى الأسر الغنية من ملاحظة والديهم إلى ملاحظة الخدم فى حياتهم الداخلية حيث يحصلون على معلوماتهم .

حب الاستطلاع عند الأطفال المقيمين فى دور الحضانة

إن هذا الاستطراد من موضوعنا الأصلى إلى البحث فى الوسائل المختلفة التى تعبر بها عن نفسها غريزة حب الاستطلاع عند الطفل الذى ينشأ فى الأسرة استطراد لا بد منه إذا أردنا أن نعرف الموقف الذى يجد فيه الطفل نفسه بالملجأ .

فما هو مصير غريزة حب الاستطلاع الراقية التى توجه فى دور الحضانة إلى اللعب والتعلم ؟

وما مصير اللذة التى يجنيها الطفل من المغامرة والكشف ؟ .

وما هى الفرص التى تشبع فيها غريزة حب الاستطلاع الجنسى؟

توجيه حب الاستطلاع إلى اللعب والتعلم

يجب أن نقرر بالنسبة للطفل الذى ينشأ فى أسرة من الطبقة الوسطى سواء أمكن أن يلحق بمدرسة الحضانة أم لم يمكن ، هل يمكن توجيه « حب الاستطلاع » عنده إلى نواح مفيدة أو لا ؟ لأنه يحتمل أن تعجز الأم الجاهلة من الطبقات الفقيرة عن اقتناء اللعب المناسبة وألا تملك توجيه نشاط طفلها ، أما إذا ما أدركت دور الحضانة حاجة الطفل فإنها يتاح لها فرص ممتازة لمنح أطفالها حياة مدرسية ونشاطا . ولقد وجد بعض كبار المفكرين من الإخصائيين أن فى وسع

دور الحضانة العادية التى أنشئت لأطفال الحرب أن تكون دائما مدارس حضانة صالحة ، وأن تشبع على الأقل رغبة واحدة هامة من رغبات الطفل وإن كانت تعجز فى الغالب عن تمثيل الجو العائلى الحقيقى للأطفال .

نعم إن الملاجئ لاتستطيع فى هذه الناحية أن تمنح الطفل أكثر مما تمنحه مدارس الحضانة النهارية الصالحة ، ولكن ينبغى لها أن تحرص على ألا تقدم للطفل أقل مما تقدمه هذه المدارس .

اللذة التى يجدها الطفل فى المغامرة والكشف

كثيرا ما يصف المشرفون على دور الحضانة التى أخليت زمن الحرب السرور الذى يجده الأطفال الصغار ، الذين لم يخرجوا من لندن مطلقا قبل ذلك الوقت ، حين يجدون أنفسهم فى حياة ريفية جديدة يستمتعون فيها بمسرات لم يكن لهم بها عهد من قبل من حياة النبات والحيوان ، فلا ينبغى أن تجعلنا هذه الظروف الاستثنائية نجهل أن طفل دار الحضانة وإن كان يمنح بعض المنافذ للتنفيس عن روح المخاطرة التى قد لا تتوفر فى الحياة المنزلية ، منعزل بوجه عام حبيس بعيد عن معظم حقائق الحياة ، ويعيش فى عالم مصطنع وهو جماعة معظمها من الأطفال ، وجميع نواحى النشاط اليومى فيها تدور حول الأطفال . وفى هذه الحالة لايلبث الطفل أن يجد صورة ممسوخة

من الحياة الخارجية ، فهو لا يتمكن من الحصول على معلومات فى مختلف الأعمال والحرف ، اللهم إلا ما يتصل منها بالأطفال أنفسهم ؛ ولا يكوّن إلا فكرة ضئيلة عن النقود مادام لا يعامل التاجر ولا يرسل لقضاء الحاجات ، كما أن تفكيره قاصر جداً عن معرفة مصادر الحاجيات الضرورية فى الحياة ، وذلك لأن الأشياء تقدم إليه عند الضرورة ، ولا يرى الأطفال عملية الشراء مطلقاً ، ولا يسمعون مناقشة تدور حولها ، وفى كثير من دور الحضانة قلما يترك الطفل منفردا أو بدون رقابة ، أو يسمح له بحرية التجوال حتى فى داخل حدود الملجأ ، ويعمل هذا كله على رسوخ جهله بالعالم ، ويؤثر تأثيرا مباشرا فى روح المغامرة عند الطفل .

ومع أن تقييد حياة الطفل أقل قسوة عنده من تعطّشه فى نواحٍ أخرى فإنه يؤدى إلى جدب الحياة الملجأية لا يقل فى ذلك عن أى عامل آخر .

حب الاستطلاع الموجه إلى المسائل الجنسية والعائلية

إن ظروف الملاجئ لا تباعد بين الطفل وبين الحياة السوّية العادية فى شىء كما تباعد بينه وبين لذة المغامرة والكشف السالفة الذكر ، أما فيما عدا هذا فيكون لدى الطفل من الفرص ما يمكنه من جمع المعلومات الخاصة بالفرق بين الأولاد والبنات ، فهو يلاحظ جسام زملائه العارية مثلا ، فالتعليم بدور الحضانة مشترك

بدون استثناء تقريبا ، وقلما بذلت محاولات للفصل بين الجنسين فى أوقات النوم وخلع الملابس أو الاستحمام ، وقد وضع النظام فى التدريب على العادات فى كثير من دور الحضانة بحيث يؤخذ صغار الأطفال مجموعات إلى المغاسل فى أوقات معينة . وكان من أثر هذا النظام أن خجل الأطفال من وظائف بعض أعضاء الجسم كان يبطىء فى النمو أكثر من المعتاد . ومهما كانت حالة جسم طفل معين (كالختان ، أو التشويه الخلقى الطفيف أو الكثير) فإن الأطفال عامة لا يلبثون أن يعرفوها . وليس معنى هذا أن الأطفال يكوّنون بالضرورة فكرة صحيحة عن أجزاء الجسم أو عن الفرق بين الجنسين ، فالملاحظة الموضوعية تتضارب مع نتائج تخيّل الطفل وتصوراته ، لأن الأطفال يعتنقون نظرياتهم الخاصة عن فائدة أعضاء الجسم المختلفة وعن الفرق بين الجنسين ومنشئه ، فإذا لم يتفق فى ذلك ما يرونه مع ما يتخيلونه فان خيالهم يكون فى العادة أقوى برهانا من الحقائق التى يشاهدونها بأعينهم .

وتدل مشاهداتنا على أن الأطفال ينتبهون إلى الفرق بين الأولاد والبنات فيما بين سنّ سنة ونصف وسنتين ، وفى حالتين من الحالات أبدت بنتان صغيرتان دلائل واضحة من الارتباك حينما شاهدتا الأعضاء التناسلية عند ولد فى هذه السن . ويستجيب الأطفال غالبا استجابة سلبية لهذه الملاحظات الأولى ، فهم لا يذكرون ما يلاحظونه من فروق فى الأعضاء الجنسية ، ولكنهم بدلا من ذلك يؤكدون

التشابه بين غيرها من الأعضاء ، ولقد أظهر بعض أطفالنا بين سن سنة ونصف وسنتين اهتماماً خاصاً بسرّة الأطفال الآخرين وأثدائهم .

مثال ١ : وضُعت « بابت » (١٥ شهراً ونصف) إلى جانب كرستوفر (١٧ شهرا) فرفعت بابت ثوب كرستوفر عدة مرات ولمست عضوه التناسلي ، وكان كرستوفر يدفعها بغضب فى كل مرة ويسدل ثوبه إلى أن عدلت عن ذلك .

بعد أسبوع من ذلك الوقت كان الطفلان « بابت » « وركس » (١٣ شهرا) عاريين فوق مائدة الغيار وقت الاستحمام ، فلاحظت « بابت » ثديى « ركس » وأشارت إليهما عدة مرات وتمتمت بلغة الأطفال ، وظلّت تحملق فى المربية متسائلة ، وهى « تتمتم » طوال الوقت .

وبعد يومين من ذلك كانت تستحم مرة أخرى مع ركس فى نفس الوقت فوقع نظرها على سرته فظلت تنقل بصرها بين سرتها وبين المربية على التعاقب مدة طويلة وتتكلم بقوة ، وبقيت برهة تتطلع إلى « ركس » باحثة ، ولكنه كان قد لف بالمنشفة فلم تلمسه ، وبعد برهة أخرى فارقها اهتمامها .

مثال ٢ : كشفت « روز » سرتها وهى فى الشهر الثامن عشر من عمرها وظلت تكشف عنها كل يوم عدة مرات وتشير إليها أو تلمسها ، ولم يكن ذلك يحدث مطلقا عندما تكون فى سريرها أو فى حظيرة اللعب ، ولكنها كانت تزاوله عندما كانت تجرى فى أنحاء الغرفة .

مثال ٣ : كانت « روز » (١٩ شهرا) تراقب دونالد (شهران) وهو يستحم وتتفرس فيه باهتمام فائق ، ثم رفعت ثوبها ونظرت إلى سوتها ، وبعد لحظة وضعت يدها بين فخذيها ولم تكن قد فعلت ذلك من قبل .

مثال ٤ : وقفت « آنيت » (٢٢ شهراً) بجوار سرير سام (١٨ شهراً) فى إحدى الليالى عندما كان يخلع ملابسه ، وكانت عيناها مثبتتين فيه أثناء ذلك . وأخذت منذ ذلك الحين تتوقف عن لعبها كلما أدركت أن دوره فى الاستحمام قد أزف ،وكانت تراقب مايجرى فى هذا الشأن ، كما كانت تحاول أن تلمسه بيدها ، ولم يكن بغرفة آنيت ذكر غيره فى ذلك الوقت .

مثال ٥ : ابتدأت « چيسى » عندما ناهزت الثانية من عمرها تظهر اهتماماً كبيراً بجسمها وخاصة عضوها التناسلى ، وكانت تربت عليه وتكشف عنه أحيانا وترفع ثوبها فى مرح أثناء اللعب قائلة « انظروا إلى هنا ... » ، ثم تبع ذلك دور آخر أخذت فيه تقارن بين جسمها وجسم أختها وأمها ومربيتها ، وكان حديثها فى أثناء ارتداء ملابسها أو استحمامها يجرى على هذا المنوال :

« إن لى هذا ... فهل الأمر كذلك عند أمى وبيسى وإلزا ؟ » إن لدى « بيسى » أنفا وكذلك « چيسى » : ولبيسي وإلزا وچيسى أذنان . وتبع هذا الدور دور آخر كانت تحاول فيه أن ترفع ثوب أمها وثوب غيرها من الكبار لترى سراويلهن .

مثال ٦ : كان « جيم » (سنتان ونصف) يتفحص جسمه أثناء خلع ملابسه وينظر إلى سرته قائلا « انظروا هنا إلى هذه الثغرة الكبيرة — إنها ثغرة كبيرة جدا » . وعندما كان يتطلع إلى صدره كان يقول « إن عندى فقاعة هنا ... وفقاعة أخرى كذلك » ؛ ويشعر فى ذلك بسرور ويطوف بالغرفة يسأل الأطفال الآخرين « هل لك ثغرة ؟ هل بك فقاعة ؟ » ثم يتحول إلى المربية فيسألها « هل لك فقاعة ؟ هل بك ثغرة ؟ » وكان يضحك جذلا وهو يقول ذلك ، كما كانت تبدو عليه علامات الانفعال .

مثال ٧ : كان « دك » (٣ سنوات و ٨ شهور) حين يتطلع إلى صدره يقول لمربيته فجأة :

« عندى زران هنا ... افتحيهما » . وهنا يأخذ فى التطلع إلى «أزرار» الأطفال الآخرين فى غرفة الملابس، ويحاول لمسها أو جذبها ثم يعود إلى المربية يقول لها فى رقة : —

« إن هذه الأزرار لا تفتح فما الغرض منها إذاً ؟ » .

مثال ٨ : تسلق « بوب » (٤ سنوات وثلاثة شهور) حوض الحمام أثناء غياب مربيته عن غرفة الحمام ، وغطى أعضاءه التناسلية بقميصه ، وعندما رجعت المربية صاح بها « لاتستطيعين رؤيته الآن ... لقد اختفى كله » وعندما سئل لماذا ؟ أجاب : « إذا لم تستطيعى رؤيته فقد تظنيننى جين » .

مثال ٩ : تطلع « بوبى » (٧سنوات) لحظة إلى الطفلة الوحيدة بالمنزل الريفى باهتمام عظيم ثم تحول عنهاوسأل « من الذى خلع لها جميع أسنانها ؟ » وذلك لأن لثتها الخالية من الأسنان قد أثرت فيه تأثيرا واضحاً غير سار .

وكانت هذه إحدى المشاهدات الكثيرة التى كان يبديها أطفالنا الكبار فيكشفون بذلك عن اعتقادهم بأن جسم البنت قد حدث فيه إصابة من نوع ما .

ومثل هذه الفرصة الدائمة لملاحظة الأطفال الآخرين تناقض تماما الحالة التى يعيش فيها أطفال دور الحضانة الذين انقطعت الصلة بينهم وبين حياة الكبار . ويتوقف مقدارما يجلهون من هذه الناحية على مجرد الصدفة أى على الأمكنة المخصصة للعاملات فى هذه الدور . فكل من معهدينا مثلايخالف الآخر فى ظروفه كل المخالفة ، ففى منشأتنا الريفية يقوم الأطفال غالبا بزيارة غرف المربيات القريبة منهم ، وكثيرا ما يتناولون معهن الطعام فى المطبخ ، ولكن فى منشأتنا فى حدائق « نذرلاند » تبعد غرف نوم المربيات عن الأطفال ، الصغار منهم والكبار ، فلايرى الطفل الصغير مطلقا أحد الكبار نائما ، وقلما يرونهم فى الأكلات الرئيسية ، ولكن هناك ترتيب خاص لكبار الأطفال ، ذلك أن بعض أعضاء هيئة المعهد يشاركونهم الطعام وإلا لاعتقد الأطفال أن الكبار لا يأكلون مطلقاً .

وإليك بعض مشاهدات مستمدة من غرفة الأطفال ، وذلك أن بعض أعضاء غرفة الأطفال الصغار تتراوح أعمارهم بين (١٤ ، ٢٤ شهرا)

مثال ١٠ : تغير المربية بين حين وآخر رداءها الواقى من القذارة بداخل الغرفة ، وكلما كانت تبدأ فى فك الأزرار يأتى الأطفال الكبار ويشيرون إلى هذا الرداء ، فإذا ما ظهر ثوبها تجمع حولها جميع الأطفال ينظرون إليها فى دهشة ويصيح البعض ويصمت البعض الآخر صمتاً تاما ، فإذا ما ارتدت رداءها الواقى الآخر انصرفوا عنها

مثال ١١ : كشف الأطفال فجأة أن لدى المربية دبابيس للشعر يمكنهم سحبها من شعرها ، فسحبوا معظمها فى يوم من الأيام حتى انحل شعرها ، وبينا كانت تعيد تصفيفه صاح أحد الأطفال قائلا : « انظروا ... انظروا » وحدق فيها الباقون فى دهشة وظلوا صامتين ثم حاولوا أن يعيدوا الكرة حالما انتهت من تصفيف شعرها .

مثال ١٢ : بينما كانت المربية فى الحديقة مع الأطفال حدث لحذائها حادث فخلعته لترى ما به ، فحدق « سام » (٢٢ شهرا) فى جواربها بحيرة ودهشة ، فلما لبست حذاءها بعد ذلك مباشرة وجلست فى هدوء ابتعد عنها سام قائلا « انتهى كل شىء » .

إن عدم وجود فرصة لمشاهدة مثل هذه الأمور ومراقبتها ، ليس فى الواقع إلا عنصراً واحداً فى حالة شاذة بوجه عام ، لأن هؤلاء الأطفال لا يلمسون عن قرب ما يقوم به الكبار باستمرار كارتداء

الملابس وخلعها واليقظة والنوم وحسب ، ولـكنهم قلما يرون متاع الـكبار الخاص ، وليس لديهم فرصة الفحص عنه اللّـهم إلا بطريق المصادفة المحضة ، وقلما يصل إلى سمعهم شيء من الحديث الخاص إلا عن طريق الصدفة أيضا . ولما كان الوالدان — إذا ظهرا سوياً — إنما يفعلان ذلك فى ساعات قصيرة من النهار فقط فإن الأطفال لا يمكنهم أن يلتقطوا شيئا مفصلا عن الحياة الزوجية ، وليس لديهم سبيل إلى التغلغل فى سر مجىء الأطفال مادام الأطفال يأتون إلى دار الحضانة ولا يكاد أكبرهم سناً يكون قد رأى أمه مطلقاً . ولا يحتمل بالتأكيد أن يكون الطفل قد جمع معلومات تمكنه من معرفة الدور الذى يضطلع به والده ، لا فى علاقته بأمه ولا فى دوره المعتاد بوصفه حامى الأسرة والقائم بأمرها . وبدلا من الجو العائلى الصاخب الملىء بالعواطف والذى يحفز حب الاستطلاع عند الطفل تواجه دار الحضانة أطفالها بنوع من النظام الثابت ..ومن الطريف أن نعرف كيف يحاول الأطفال الصغار عندما ينقصهم الغـذاء الذى يشبع غريزة حب الاستطلاع عندهم أن يتغلغلوا فى البحث عن تفاصيل هذا النظام الرتيب . فأما الأفـكار الأخرى مثل « يقوم بالعمل ، وخال من العمل ، وساعات الراحة ، وأيام العطلة ودقائق التفتيش الصحى » فإنها تحاكى خروج الوالدين من المنزل أو الرجوع إليه وما إلى ذلك مما يحدث فى الأسرة . وكذلك اجتماع هيئة المعهد ومواسم المحاضرات التى تظل موضوعاتها لغزا فى نظر الأطفال فأنهم يراقبونها بغيرة

وارتياب كما يرقب الأطفال أى نوع من نشاط والديهم يحدث فى الخفاء ، ويصبح اهتمامهم باستقصاء العلاقات القائمة بين أعضاء هيئة المعهد لا يقل شأناً عن اهتمامهم باستقصاء العلاقات القائمة بين الأب والأم .

ولقد تعودنا رؤية الأطفال يكونون صورة لعالمهم على منوال ما تخيلوه من العلاقات العائلية التى كانوا مشوقين إلى رفع الستار عنها — وإنا ليخالجنا لسبب ما ، كثير من الريبة حين نراهم يعملون هذا العمل نفسه وهم فى محيط الملاجئ ذات النظم المصطنعة المقررة .

مثال ١٣ : تميز حاجيات الأطفال فى دار الحضانة التابع لنا بصور بدل الأسماء كما هى الحال فى كافة دور الحضانة . ويصبح للأشياء التى تمثلها هذه الصور أهمية عظيمة عندهم . فلما كان « نك » فى سن (٣ سنوات و ٣ شهور) ورأى القمر لأول مرة قال « انظروا ... إنه قمر « دافيد » الصغير » : ولم يكن الرمز الذى يوضع على أدوات دافيد كفرشاة أسنانه ومشطه يمثل لديه القمر الحقيقى بل بدا له قمر السماء صورة للشعار الذى كان له فى دار الحضانة هذه الأهمية البالغة .

مثال ١٤ : رأت « سوزان » القمر وهى فى سن الرابعة لأول مرة من نافذة دار الحضانة ، وكان ذلك فى الصباح الباكر فسألت : « هل كان القمر هنالك طوال الليل ؟ » وعندما أجابتها مربيتها بالإيجاب قالت « سوزان » فى شىء كثير من الفهم : « إنه العمل الليلى » .

مثال ١٥ : كانت « سوزان » بوجه خاص تركز أعظم اهتمامها في جميع التفاصيل الخاصة بأدوار العمل ، فكان يمكن الاعتماد عليها في أي لحظة من النهار في معرفة مكان أي شخص والعمل الذي يشغله ، ومن نزل الدرج بالصينية إلى المطبخ أو من صعد على السلم لعمل ما ، وأي المربيات في ساعات الراحة وأيهن تنتظر راحتها ، وأيهن في يوم عطلتها وما إلى ذلك . ولم تكن تتسلى بذلك فحسب ، ولكنها كانت تلاحظه بعين ناقدة إلى أبعد حدود الدقة حتى لتستنتج أي عيب يحتمل أن يكون في هذه التنظيمات ذات الأهمية الكبرى — في نظرها .

مثال ١٦ : « بتي » (٤ سنوات) طفلة حساسة إلى حد كبير ، ألحقت بدار الحضانة في حالة مزعجة جداً إذ كانت قد فقدت والدها الذي توفي كما فصلت عن أمها ، وعلمت شيئاً عن احتمال زواج أمها للمرة الثانية . وكانت تعد الأيام بين كل زيارة أسبوعية والتي تليها ثم تردت في حالة سيئة عندما ذهب حسابها هباء لمرض أمها المفاجئ ولعجزها عن حل ألغاز انفصالها عن أمها ثم اتصالها بها مرة ثانية وموت أبيها وزواج أمها ثانية ، كل ذلك ظهر في صورة قلق قسري في حالتي العمل والراحة ، وكانت تسأل كل مربية بل كل زائر «ما اسمك ؟ وأين تعيش ؟ وأين تنام ؟ هل أنت خال يوم الأحد ؟ هل أنت خال يوم السبت ؟ إنني خالية يوم الأحد» وما إلى ذلك .

مثال ١٧ : كانت « سوزان » مريضة بغرفة المرضى فزارتها المشرفة المختصة ، فطلبت إليها سوزان جرعة ماء ، ولكن قبل أن تتمكن المشرفة من أجابة طلبها قالت وعلى وجهها علامات الظفر وفى صوتها رنة المشاكسة : « ليس لك أن تقررى شيئاً فى هذه الغرفة ، يجب عليك أن تسألى الأخت المرضة عن كل شىء » .

مثال ١٨ : جرت المحادثة التالية بين « برتى » (٥ سنوات ونصف) وبين « راى » (٥ سنوات) : قالت برتى « هل تعلم أن أليس هى رئيسة الملجأ كله ؟ » فأجابها « راى » : « نعم ولكن چون رئيس الغلاية والمشتل » .

مثال ١٩ : نقلت مجموعة من الأطفال من رياض « نذرهول » إلى أقسام الحوادث الفجائية فى بيت المربيات فى أثناء تفشى مرض الحصبة . ولما فكروا فى إعادتهم إلى دار الحضانة الرئيسية قالت « آن » : — « لا أريد الرجوع إلى نذرهول بل أريد أن أبقى هنا حيث تقيم «رث» (وهى مربيتها الخاصة) . وعندما قيل لها إنها سوف ترى « رث » بدار الحضانة أكثر مما تراها فى هذا المكان (وكانت هذه المربية تعمل هنالك طول النهار) أجابت « آن » « لا يعنينى أين تعمل ولكن الذى يعنينى هو أين تنام » .

مثال ٢٠ : رأت « كاترينا » (٨ سنوات) الطبيبة تتأبط كتاباً ضخما قبيل محاضرة كانت ستلقيها على التلاميذ فى علم التشريح ،

وأرادت أن تفتح هذا الكتاب فإذا هى أمام صورة لقطاع من جسم الإنسان ، وظهر أنها تمعن النظر إليها باهتمام وتدرك تماما ماترى ، ولكن قبيل دخول الطبيبة إلى الفصل سألتها كاترينا « ولكن من الذى ستقطعينه اليوم ؟ » .

ومعنى هذا أنها تخيلت ما يجرى بداخل حجرة الفصل المغلقة قد تحول من محاضرة نظرية إلى عملية فظيعة ستجريها الطبيبة على أحد ضحاياها من التلاميذ .

الخلاصة :

يجب أن ننظر إلى الرغبات الغريزية المبكرة عند الطفل نظرة جدية ، لا لأن إشباعها أو منعها يسبب له لذة وقتية أو ألما ، ولكن لأنها القوى المحركة لنمو الطفل وتقدمه من عهد اهتمامه البدائى بنفسه وانهماكه فى لذته الذاتية التى تتجه عادة إلى الاتصال الذى يترتب عليه مواءمته لعالم الكبار ، ولنلخص هذا مرة أخرى : —

إن الطفل الذى يشاطر أمه لذته الجثمانية يتعلم من هـذه الناحية أن يحب شيئا فى عالمه الخارجى ، فلا ينحصر حبه فى ذاته فقط ، وحرمانه من لذة كهذه مع ما يترتب عليه من ازدياد نشاطه فى عشقه الذاتى يقلل من احتفال الطفل عما يحيط به ، كما يسبب زيادة فائقة فى امتصاصه لإبهامه واهتزازه أو استمنائه ، فيخلق الطفل لراحته عالماً خاصاً من نسيج خياله قد ينسحب إليه فيصبح بعيداً عن التأثير الخارجى .

وتنمو قدرات الطفل — مواهبه وذكاؤه — أو بعضها على الأقل حين تعمل على إشباع رغبته فى إعجاب غيره به ، ويؤدى ما يتلقاه الطفل من إعجاب غيره به — كما بينا ذلك من قبل — إلى جهود أخرى يبذلها لهذا الغرض نفسه ، وقد يؤدى القمع وعدم الاهتمام بالطفل إلى أثر مضاد لهذا .

وإشباع حب الاستطلاع عند الطفل ولو إلى حد ما يدفعه إلى تقليد عالم الكبار ، وحينئذ يقف قدراً عظيما من نشاطه على خدمة رغبته فى التعلم والنمو . فإذا أبينا على الطفل هذه المعلومات أو الفرص التى تمكنه من الحصول عليها فقد يتعدى أثر هذا إلى نواحى نشاطه الذهنى ويقيم فى وجهه الموانع من كل نوع .

ويتوقف نمو شخصية الإنسان نمواً طبيعياً صحياً على الظروف التى تحيط بصلات الطفل الأولى ، وعلى مصير القوى الغريزية (الجنس وحب المقاتلة وما يتفرع عنهما) التى تجد فى هذه الصلات الأولى ذات الأهمية الكبرى متنفساً لها وتعبيرا عن نفسها .

الفصل الخامس

دور الأب فى دار الحضانة

يعتقد كل من له إلمام بظروف المعيشة فى دور الحضانة أنه لا يكاد يكون ثمة مكان للأب فى حياة الطفل الواقعية هناك ، ويرون أن هذا من الحقائق البديهية ؛ فالآباء بطبيعة الحال يترددون على دور الحضانة زائرين فى بعض أيام الآحاد أو فى أجازتهم من الخدمة الحربية ، ولكن تصرفهم فى هذه الزيارات يختلف عن تصرف الأمهات الزائرات ، فتصرف الأمهات يكون أقرب إلى الطبيعة عندما يزرن دور الحضانة ، فهن يتناولن أطفالهن بطرق شتى فيفحصن أجسامهم ويقصصن أو يجعّدن شعرهم ويرتبن ملابسهم ويغسلن أجسامهم أو ينمنهم أحيانا ، ويمطرنهم بسيل من الحلوى ، أو يقضين معهم هذا الوقت القصير فى نقدهم وتخطئتهم كل أم حسب طبيعتها . أما الآباء فلا يفعلون شيئا من هذا عادة بل يغلب عليهم الخجل والركود ، وهم لا يستريحون إلى دنيا يعمرها النساء والأطفال ، ويتحيرون أمام الطلبات التى يطلبها أصدقاء أطفالهم ، وكثير منهم يغتبط اغتباطا واضحاً عندما تنتهى مدة الزيارة ، كما أنه ليس فى تصرفهم ما يمكن أن يذكّر الأطفال — ولو عن بعد — بالمركز

الذى كانوا يحتلّونه فيما لو نشأوا فى ظروف عائلية طبيعية ، فلاهم يزوّدونهم بالطيبات ، ولاهم آخر من يلوذ بهم الطفل فيما يهمه من أمور . ومع أن بعض دور الحضانة قد حاولت أخيرا أن تكفل بعض « حقوق الأمهات » فيما يختص بزيارة أطفالهن على الأقل ، فإنه لم يصل إلى علمنا أن داراً واحدة للحضانة أوجدت مثل هذه الفرص للآباء .

كررنا القول فى هذا الكتاب وكذلك فى كتاب سابق[1] عن خطورة النتائج التى تلحق بنموّ الطفل الذى يُفصل عن أمه ، وبالرغم من أنه ينقص حياة الطفل اليومية بدار الحضانة وجود الأم نفسها ، فإن وظائفها من حيث هى أم قد انتقلت منها إلى أخريات يقمن مقامها .

فالطفل الذى لا تعنى به أمه نفسها فتحمله أوتطعمه وتغسل جسمه وتدلله أو تلاعبه ، إنما تحمله وتعنى به أخريات لا يلبث الطفل أن يعدّهن فى مكان أمه ، ولكن لا يوجد شخص فيمن يعرفهم الطفل يقوم مقام والده الذى غاب أو مرض أو مات . فالقوى المعنوية غير الشخصية ، كالمؤسسة والمديرين والمجلس توفر للطفل الوسائل المادية لتربيته كما تفصل قراراتها فى مصيره ، ولكن الطفل لايدرك كنه هذه القوى ، وليس لها شأن فى حياته اليومية الواقعية . وإذاً فليس هناك من يمكنه أن يملأ الفراغ الذى يتركه غياب الأب أو من يحلّ مكانه .

(١) « صغار الأطفال فى وقت الحرب » طبعة جورج ألن وأنون — المعهد الجديد سنة ١٩٤٢

وقد تعجب بحق من أن هذه الحقيقة الواضحة لم تستلفت النظر أو توجد اهتماماً أكبر مما أوجدته بتربية الطفل وتنشئته تنشئة طبيعية سوية . وحيثما وجدت مشكلة الأطفال الكبار (وخاصة الصبيان منهم) فغالباً ما نسمع الرأى القائل بأن من العسير على الأم أن تتناول أطفالها فتكبح جماحهم بدون مساعدة الأب . أما من حيث المراهقون من الجنسين فإن محاكم الأحداث حين تلخص وقائع دعوى مقامة على مجرم حدث كثيرا ما تذكر عدم وجود الأب وتعده عاملاً حاسماً فى خروج الطفل على المجتمع . ومن المعروف الشائع أن جرائم المراهقين والأحداث ترجع فى أوقات الحرب وما بعد الحرب إلى سبب واحد هو ضعف النظام العائلى بسبب تغيب الأب فى القوات المسلحة ، أما فى حالة الأطفال الصغار ، فأن الحاجة إلى الأم وأهميتها فى حسن مآل الطفل ونموه الجسمى والخلقى تبدو من غير شك أعظم من حاجته إلى الأب ، فالأطفال الذين رحلوا من المناطق الخطرة مثلا كانوا يصرخون فى طلب أمهاتهم ، وكان التأخر فى نمو الطفل كالتبول على الفراش والاضطراب العاطفى وفقدان الطفل لبعض وظائف أعضائه أو قدراته ، كالقدرة على الكلام كان ذلك كله يعزى على الدوام إلى انفصال الطفل عن أمه ، وليس عن والده . والأمهات اللواتى يزرن أولادهن دون الآباء يقابلن منهم بالترحيب على الدوام فى حين أنهم ينبذون الآباء الذين يزورونهم من دون أمهاتهم زورات غير مرتقبة (بسبب مرض الأم مثلا) . إذاً

ليس فى مقدور الآباء أن يبعثوا فى نفوس أطفالهم الراحة والرضا ، وإذا واجه الطفل فى دار الحضانة خطر مفاجئ (كالعلاج الطبى المؤلم ، والتلقيح والتطعيم) ، فإنه يصرخ مستغيثا بأمه الغائبة ، ولم نسمع طفلا فى مناسبة كهذه يستغيث بأبيه (وإن كان الأطفال فى بعض الغارات الجوية قد سمعوا يستغيثون بآبائهم) . فهذه الحقائق وأمثالها خليقة أن تولد الظن بأن وجود الأب أقل أهمية فى حياة الطفل من وجود الأم .

قد يكون هذا صحيحاً فى ظاهر الأمر (مع أن ملاحظة طفل صغير ملاحظة دقيقة قد تثبت خلاف ما ذكرنا مخالفة تامة) ؛ ولكن الذى لاشك فيه أنه لا يصدق بالمعنى الدقيق ، فعلاقة الطفل العاطفية بوالده تبدأ متأخرة عن علاقته بأمه ، ولكن من المحقق أن تصبح من عامه الثانى فصاعدا عاملا أساسيا فى حياته العاطفيه وعنصرا جوهريا فى قواه المعقدة التى تعمل على تكوين أخلاقه وشخصيته .

وتبدأ علاقة الطفل بأمه — كما وصفنا آنفاً — مرتبطة بالإشباع الذى تكفله له فى التغذية والتدفئة والراحة ، ومن هذه الخطوة البدائية الأولى ينمو حب الطفل لأمه ، ويبقى الطفل العادى بحاجة إليها مع تغير نوع هذه الحاجة من الرغبة فى الراحة المادية إلى الرغبة فى الحب والمودة ، والأعجاب والمعرفة ، والاستحواذ عليها بمفرده ، وجميع المسرات المختلفة التى تنشأ أثناء المراحل المتعاقبة فى

نمو غرائز الطفل . ويبقى حب الطفل لأمه لا يعوقه عائق ما دامت قادرة على منحه الإشباع ، فإن امتنعت عنه اضطرارا ، إما لظروف خاصة أو لاعتبارات تتعلق بنموه ، غضب الطفل منها غضباً شديداً بسبب عنف شعور الأطفال الجنونى ، فيصل إلى حد الغيظ منها والحقد عليها وتمنى الموت لها .

ويجب أن يكون الطفل ذو النمو الطبيعى قادرا بعد السنتين الأوليين من حياته على أن يقبل ، إلى حد ما ، ما يفرض عليه من قيود دون أن يثور . فإذا ما تقدم نموه ، كان عليه أن يتعلم نبذ بعض لذاته راضياً فى سبيل والدته ، وحينئذ يصبح استبدال حب الأم بالقيود الغريزية أساساً لتكون أخلاقه وضميره

وعلاقة الطفل بوالده تنمو فى اتجاه نمو علاقته بأمه من بعض الوجوه ؛ فبينا يكون تقبله للإشباع العنصر الأساسى فى صلته الأولى بأمه ، نجد أن أول عاطفة تتجه نحو الوالد ترتبط بشعور الطفل بالإعجاب بوالده لتفوقه فى قوة جسمه وسلطته . أما الوالد فيصبح فى نظر الطفل الكفيل بتزويده بالمنافع المادية ، ويعده تدريجاً السلطة المحركة للأم التى تدور حولها جميع الشئون العادية فى الأسرة ، ولكنه يظل مع ذلك شخصية لا يألفها الطفل بقدر ما يألف أمه ، بعيدا عن استجابته القوية المباشرة ، وذلك لضخامته فى نظر الطفل . وهذا يقتضيه محاولة تقليده ليصبح على غراره ، أو كما يصور له خيال

الطفولة ، يرغب فى أن يحصل على صفات والده التى يراها بعين خياله على الأقل بالغة حدّ الإعجاز .

وهناك ثغرتان لابد أن ينفذ منهما الاضطراب إلى هذه العلاقة المرضية من كل الوجوه إلا من هاتين الناحيتين : فالأولى هى الدور الذى يقوم به الأب ، والذى يفوق دور الأم ، فى تمثيله للطفل النامى القيودَ التى يفرضها كل مجتمع متمدين ، إذ لابد للطفل — ليصبح عضواً اجتماعياً فى الهيئة البشرية — أن يكبح جماح رغباته الجنسية والعدائيـة ويعدّلها . والذى تقوم به الأم فى هذه الناحية من دقيقة إلى أخرى ومن يوم لآخر من نقد ومدح وإرشاد ، يزيده الأب قدرة بمجرد وجوده فى الأوقات العـادية . وبالرغم من أن الطفل يرى فى والده رمزاً للقوى الجنسية والعدوانيـة ، فإن أثره فى نفس الوقت يكون قوياً فى كبت رغبات الطفل وثورته الخفيّة وهى التى يثيرها رفض الأم مطالبه .

ولا يقل الاضطراب الذى ينفذ من الثغرة الثانية أهميـة عن سابقه ، فالوالد فى الأسرة العادية يكون موضع حب الطفل ، وهو فى نفس الوقت منافس له — للطفل الذكر على الأقل — فى استلفات نظر الأم إليه واستحواذه عليها ، ومع أن الأب والطفل قد يكونان أحسن صديقين فى أوقات معينة فإنهما فى غير هذه الأوقات يصبحان دون شك عدوين متنافسين إذا كان الأمر يتعلق بالأم .

ويستاء الطفل استياءً مراً لشعوره بضعف قوته وقلة حوله فى

هذا النزاع غير المتعادل ، وهذه الأمور تسبب العداء والثورة الباطنة على الأب ، ولكنها فى نفس الوقت تقوّى رغبة الطفل فى تقليد والده والاندماج فيه ، ليصل من ثمة إلى القدرة على كسب أمه وتملكها .

وهكذا نرى الطفل فى سيره نحو تكييف نفسه بعالم الكبار ينتقل فى مراحل عاصفة من حيث علاقته العاطفية بشخصية والده . وثمة ظروف عدة يحتمل أن تؤدى إلى نمو الطفل نمواً شاذا فيصبح منعكفاً عن الناس مضطرب الأعصاب منحرفا — وقد يصبح الإعجاب بقوة الأب خوفا وهمياً مما قد يلاقيه منه إذا ظل كثير المشاكسة مندفعاً فى أهوائه (كالخوف من مزاولة العادة السرية) ، أو شديد الإصرار على مطالبه من أمه . وقد تؤدى هذه المخاوف إلى ترك الطفل كل هذه الرغبات وما يترتب على هذا الترك من جمود وفقد لقدرته وكره وامتناع عن كل أمر من الأمور . أما التمرد القوى المبكر على الأب ، فإنه إذا لم يكبح جماحه ، وإذا لم يتغلب عليه الجانب الحبى من العلاقة المتبادلة ، فقد يؤدى إلى النفرة بينهما أو انهيار المطالب الخلقية التى كان الأب ممثلا لها ، ومن ثمة يؤدى به إلى أكثر أنواع النمو الإجرامى والخروج على المجتمع .

وتنجو البنات بطبيعة الحال من هذه النزعات المتضادية التى تنشأ عن منافسة الأب ، فهن يتجهن إلى ناحية مشابهة لها وهى

الإعجاب الممزوج بالحب لوالدهن ، وهى نزعات تصل إلى ذروتها حين تصبح رغبة فى التشبه بالأم والحلول محلها فى قلب الأب ، فالشوق والخيبة التى تنجم عن هذا الحرمان الدائم للطفل فى هذه الناحية يملآن خياله ويوجهان ألعابه الخيالية ويقرران إما ثقته بنفسه أو تشككه فى حب الناس له .

وليس أقل من هذا أهمية أن الوالد إذا وُجد يصبح والحالة هذه من أكبر العوامل المؤثرة فى حياة الطفل . ويجدر بنا أن نبحث عما يحدث فى حالات غياب الأب وعدم وجود من يكون له أثر مماثل لأثره .

علاقة الطفل بوالده المتوفى

لقد كان يبدو أن أطفال دارنا يسهل عليهم أن يستسلموا للانفصال عن آبائهم عندما يتركون منازلهم حتى إذا كان هؤلاء سيغادرون إنجلترا للخدمة العسكرية فيما وراء البحار . ومما يخالف استسلامهم هذا مخالفة تامة هو عدم قدرتهم على التسليم بحقيقة موت آبائهم إذا حدث ذلك بالفعل . فقد كان جميع من فقدوا آباءهم من أطفالنا يتحدثون عنهم كما لو كانوا أحياءً ، وإذا أدركوا حقيقة موتهم فهم يحاولون إنكارها فى شكل من أشكال الوهم كأن يظنوا أنهم سيولدون من جديد ، أو يرجعوا إليهم من السماء ، أو نحو ذلك .

ويحدث ذلك أحيانا بتأثير الأمهات المباشر اللاتى يخفين الحقيقة

عن الطفل لإراحته من التألم أو الحزن، وفى حالاتٍ أخرى تكون الأوهام نتيجة لطبيعة الطفل نفسه : —

مثال ١ : سوزان (٤ سنوات ونصف) فقدت والدها أثناء الغارات كانت تقول : —

« لقد مات والدى ، رحل رحلة بعيدة إلى اسكتلندا ، وسيرجع بعد حين ، بعد زمن طويل حينما أكبر » ، أو « والدى فى الجيش الآن ، وتقول لى والدتى إنه لم يعد من الأموات — إن الجيش بعيد » أو « إن والدى فى الأسطول ولا يمكنه أن يرجع لأن الماء غزير هناك » أو « إن والدى سيعود الأحد القادم — نعم . نعم إنه قادم يوم الأحد وسيحضر لى أكبر قطعة رأيتها من الشكولاته » .

مثال ٢ : قتل والد برتى (٥ سنوات ونصف) فى الغارات . فكانت تقول :

« لماذا لا يستطيع جميع الآباء المقتولين العودة وأن يصبحوا أطفالا صغاراً ، ويعودوا ثانية إلى الأمهات » أو « أن الله يستطيع أن يحيى أبى أليس كذلك ؟ » أو « لماذا لا يجمع الله الناس بعضهم إلى بعض مرة أخرى إذا ما قتلوا ويرسلهم إلينا من السماء ؟ إننى أعرف السبب ! لأنه لم يجمع الأشياء كلها بعضها مع بعض ، وسيكون لديه كل شىء بعد الحرب ، فعلينا أن ننتظر إلى ما بعد الحرب وحينئذ يجمع الله الناس مرة أخرى » .

مثال ٣ : بطرس (٤ سنوات) قتل والده فى الغـارات ، فـكان يقول : —

« إن والدى قتل ، نعم ، أختى قالت لى ذلك ، إنه لا يستطيع العودة ، إننى أريده أن يعود ، إن والدى كبير يمـكنه أن يعمل كل شىء ، لقد رأيت أبى فى الشارع وكان يلبس حلة جميلة ، نعم . نعم تقول والدتى إنه سيعود » أو « أن والدى سيأخذنى إلى حديقة الحيوان اليوم ، لقد قال لى ذلك أمس ، إنه يأتى كل ليلة ويجلس فى فراشى ويتحدث إلىّ » .

وهذه الزيارات الوهمية التى يقوم بها الآباء الذين ماتوا يتحدث بها الأطفال أكثر مما يتحدثون عن الزيارات العادية التى يقوم بها آباؤهم الأحياء ، وهم شديدو الإصرار على أن هؤلاء الآباء سيعودون لزيارتهم ، فأوهامهم التى تدور حول عمل آبائهم ، والهـدايا التى سيقدمونها إليهم ما هى فى الحقيقة إلا مدافعة لا بد منها لما يشعرون به فى نفوسهم من خسارة وحرمان .

علاقة الطفل بأبيه الغائب

تعتبر «جوليا» مثالاً للطفلة التى لم تفقد مطلقاً شوقها إلى رؤية والدها أو تتحول عنه مذ فصلت عنه وبقيت عامين (من سن ثلاث سنوات ونصف إلى خمس سنوات ونصف) وهى دائمة الحنين إليه تتحدث عنه فى كثير من الإعجاب ، وفى عبارات غير عادية

من الإعزاز ، وكانت تسميه « الولد الجميل » ، وتصف مهارته وضخامته فى عبارات رائعة فى حديثها كله قبيل النوم . ولما زارت أسرتها بعد سنتين انفجر شعورها بشدة حتى تغلبت على اعتراضات والديها وحملتهم على السماح لها بالبقاء فى المنزل بالرغم من الظروف العسيرة التى كانت تحيط بأسرتها . وكان والدها تاجراً رقيق الحال كبير السن ، عبوساً ، صارماً بعض الشيء ، لا يتساهل مع العنيدين من أطفال أسرته الكبيرة العدد ، أما بالنسبة لجوليا فقد كان الحب والإعجاب من أبرز عناصر علاقتها بأبيها .

ويتمثل الفرق البين بين الطابع الحقيقى للأب ، والصورة التى يتخيلها الطفل عنه فى حالة « تونى » الذى بقى فى أحضان أسرته حتى بلغ الشهر الثامن عشر من عمره حين نشبت الحرب والتحق والده جنديا بالجيش ، ولم يره من ذلك التاريخ إلا فى إجازاته كل ثلاثة أشهر ، وكانت تدوم فترة الزيارة عدة أيام حين كان يقيم مع والدته ، فلما مرضت والدته بالسل والتحقت بالمستشفى ، كانت زيارات والده له نادرة لا تتجاوز بضع ساعات . وكانت سنه آنئذ قد بلغت سنتين ونصف ، فأسكن مع بعض الغرباء ، وبعد أن بلغ الثالثة والنصف وألحق بدار الحضانة ، كان يرى والده مرتين أو ثلاث مرات فى السنة فيقضى معه يومين بل يوما واحداً أحيانا . وكان الأب فى أثناء غيابه يرسل إليه بين حين وآخر بطاقة بريد ، وهدية أو هديتين فى العام . وكانت تمر الأسابيع والشهور دون أن يتلقى منه أخبارا ، وكان

الوالد أثناء زياراته يغمر ابنه بالحب والود وخاصة بعد وفاة والدته ، كما كان يهتم بكل ما يسعده . ولكنه بالرغم من عطفه هذا لم يعرف إلا قليلا عن الشعور المعقد الذى ساور طفله عندما قدم إليه فى إحدى إجازاته سيدة حديثة السن وأفهمه أنها ستكون زوجة أبيه . ولما زاره فى إجازته التالية وكان قد تزوج حديثا بشابة أخرى ، حيي ولده وطلب إليه أن يقبل والدته الجديدة » .

وقد صور «تونى» لنفسه من هذه الحقيقة الضئيلة التى خيبت آماله من عدة وجوه صورة خيالية لوالده الذى كان يحمل له عطفاً شديدا وحبا وإعجابا . وعندما ناهز الرابعة من عمره لم تكن صورة والده لتغيب عن مخيلته ، فتركز حوله كل اهتمامه ، وكان يذكر اسمه دواما فى جميع أحاديثه ، وكلما التقط ثمرات العليق أو الزهور أو الأوراق حاول الاحتفاظ بها سليمة لوالده ، وكلما رأى طفلا يبكى لسقوطه على الأرض قال له : —

« إن أبى لم يبك عندما سقط من سيارة الجيش ، أليس كذلك ؟ » (مشيرا بذلك إلى حادث وقع لوالده) ، وإذا رأى طفلاً يجرى قال له دون تفكير « إن والدى يمكنه أن يجرى أسرع منك » ، وإذا ما رغب فى غسل شعره كان يسأل « هل كان والدى يبكى إذا ما غسل شعره ؟ » ويقول عندما يغتسل « إن والدى يستطيع أن يغوص فى الماء » . وكان يأكل الخضراوات رغم كرهه لها ، وذلك « حتى يصبح قوياً كوالده » ويمدّ إصبع رجله الكبرى

هى الأصبع الوالد ، كما كان يعدّ كل سيارة نقل من سيارات الجيش يراها سائرة فى الطريق سيارة الفرقة التى ينتمى إليها والده ، وكان يعزو إلى أبيه كل عمل من أعمال القوة التى يعزوها غيره من الأطفال إلى الله .

وقد بذل « تونى » جهده عقب زيارة من زيارات والده ليحتفظ بصورة له فى خياله ، وذلك بتقليده فى أعماله ، فأخذ يسعل فى الصباح لأن والده سعل فى الصباح ، وكان يحرك طعام الإفطار بملعقة طويلة قائلا « لقد فعل والدى كذلك حين تناولت طعام الإفطار معه ، وينبغى أن يفعل ذلك جميع الأطفال » . وكان آخر ما يطلبه كل مساء قبل النوم هو قصة عن والده .

ويتجلى انشغال فكره بوالده وذكر اسمه على الدوام وانتباهه لكل حركاته يتجلى كل ذلك فى خطابه الذى أملاه فى تلك الفترة إلى الأسرة الأمريكية التى احتضنته : —

« سأحدثكم عن والدى ، فهو يناديني دائما — ابنى — وهو هنا منذ بضعة أيام ، نتناول سوياً طعام الإفطار والشاى والغداء ، وعندما عاد والدى معى فى الظلام ، كانت الأشجار معتمة لم نتبينها فى الظلام ، وقد حملنى والدى فوق الجسر ، وكانت بندقيته قائمة فى الركن الذى كان ينام فيه ، وعندما أخذ يهطل المطر تبلل شعره لأننى كنت قد أخذت قلنسوته العسكرية ، وعندما تضع الحرب أوزارها —

ويجب قبل ذلك أن احتفل بعيد ميلادى — سيكون مقامى مع والدى فى البيت جميلا »

وأبرز ما يلاحظ فى علاقة «تونى» الودية الفائقة بوالده هى تلك الفترة المليئة بالاستياء والعداء التى سبقت هذه العلاقة بنحو ستة شهور ، ذلك أنه حين قدم والده فى إحدى إجازاته ليخبره بموت والدته ، وكان آنئذ فى سن الثالثة والنصف رأى تونى خجلا مطرق الرأس قليل الـكلام ، وكانت نتيجة هذه الزيارة أن قص على مربيته المفضلة قصة صورها له خياله ، وقد أشار إلى نقطة معينة فى الطريق وقال لها : —

« لقد أتيت هنا مع أبى فرمانى بحجر كبير وبكيت ، لم أعد أحب والدى ، ولن أحبه بعد قط » : ولما نوقش فى هذا اعترف بأنه إنما اخترع هذه القصة ، على أن هذا الاعتراف لم يخفف من نفوره ، وكان يقول : « لا بد أن أكتب لأبى بأننى لا أريده أن يأتى لزيارتى ، ولست أرغب فى تناول الغذاء معه ، ويمـكن لشخص سواى أن يحل مكانى » . وفى هذا الوقت أيضا كان يصغى باهتمام وسرور إلى الأحاديث التى تدور حول والده والتى كانت تقص عليه قبيل النوم ، ولـكنه كان يعقب عليها بنفس العبارة « لم أعد أحب والدى بعد » .

تتصل هذه الثورة السلبية فى شعور «تونى» اتصالا واضحاً بعلاقته القوية القديمة بأمه ، فقد كان سلوكه إزاء والده كما لو كان هذا الوالد

هو سبب حرمانه منها ، أو كانت له يد فى القضاء عليها « رماها بحجر كبير » وهو ما توهم « تونى » أنه فعله به .

إن كراهية الطفل لتثور ضد الأب إذا ما رأى أن معنى وجود أبيه هو انفصاله عن أمه ، فإذا لم تكن الأم موجودة أصبح الطفل ووالده خير صديقين . وقد أصبح حب « تونى » العميق لوالده أعنف من ذى قبل مذ أسدل ستاراً على مشاعره القديمة العدائية ، وظلت علاقتهما لا يشوبها النزاع الذى كان ينجم عادة من الردع الضرورى للطفل ، وقد خصص الوالد نفسه للقيام بدور الزائر الودود ، وعهد بتنشئة « تونى » كلها إلى المربية التى اختيرت حاضنة له ، وكلما كان نفوذ الوالد يظهر فى « تونى » ويدفعه إلى بذل جهوده ليتصف بصفات الرجولة والشجاعة « لا تبك ، لا تهتم ، كل خضروات » . كانت هذه كلها نتائج محاكاته التلقائية لوالده ومحاولته التمثل به ، ولم تكن نتيجة المنع ، وإصلاح الأخطاء من جانب الأب .

قصة الأب الوهمى [1]

هناك قصة أخرى لوالد كانت صورته ماثلة على الدوام فى مخيلة ابنه « بوب » حين كانت سنه (بين سنتين وثمانية شهور — وأربع سنوات وعشرة شهور) . وكان « بوب » يظن أن قدمى والده أكبر

(١) أجرى الملاحظات الخاصة بالطفل بوب وجمعها الدكتور إزهلمان

من قدمى أى رجل آخر ، وأنه « أسرع من القطارات السريعة ، ويمكنه أن يطير كالعصفور ، وأن له سيارة كبيرة ذات عدة عجلات ، وأن شعره ذهبي وعينيه جميلتان » .

ولما أخذت طفلة أخرى تمدح عيني والدتها الزرقاوين ، قال لها « بوب » « إن لوالدى جدائل أطول من جدائل بيتى » ، وكانت جدائل بيتى أطول من جدائل بنات دار الحضانة جميعاً . ومع أن إعجاب بوب بوالده يشبه فى جميع مظاهره إعجاب تونى بوالده ، فقد كان ثمة فارق جوهرى فى ظروف كل منهما فيما يختص بوالديهما ، فبينما كان « تونى » يرى أن والده رجل مثالى وإن كان شخصا حياً حقيقياً ، فقد كان والد « بوب » لا وجود له بالفعل ، ولم يكن إلا محض خيال صوّره وهم الطفل .

وكان بوب ابناً غير شرعى لم يعرف والده قط ، وكانت والدته قد ألحقته عقب ولادته مباشرة بأسرة تكفله نظير أجر ، فعاش فى منازل عدة ، ولم يكن يرى والدته إلا فى القليل النادر ، حتى ألحق بدار الحضانة ، ومن ذلك الحين أخذت تزوره بانتظام ، فأخذ حبه ينمو نحوها . وقد تخيّر فى نفس الوقت حاضنته بدار الحضانة ، فأحبها وتعلق بها تعلقاً شديدا ، ولقد ذكر والده لأول مرة عندما كانت سنه سنتين وثمانية شهور فكان يناديه فى أوقات القنوط ، وقد حمل هذا على أنه إشارة إلى حاضنه القديم الذى كان يكفله ، وذلك لأن الأسرة التى احتضنته كانت قد زارته مرتين . وكان «بوب» فى

كلتا الزيارتين يجلس فى حجر حاضنه ، فإذا ما فارقه بكى . ولم يشر إلى هذا « الوالد » مرة أخرى بعد مضى الشهرين الأولين ، وأصبح كل اهتمام بوب منصرفاً إلى أمه التى كانت تعمل فى ذلك الحين بجوار دار الحضانة ، وكانت تزوره كل يوم . وحدث أن ذكر والده للمرة الثانية عندما كانت سنه ثلاث سنوات وشهرين فقال : « إن والدتى ووالدى سيحضران يوم الأحد » ، ثم قص أنه كان يتنزه معهما . وقد ظُن أولا أنه ربما كان يشير بقوله هذا إلى أحد أصدقاء أمه ، ولم ينصرف النظر عن هذا الظن إلا حين نما خياله . وكان يقول لكل من رآه إن أباه قد زاره بدار الحضانة (ولم يكن هذا صحيحاً بطبيعة الحال) ، وأحضر له سيارة (وكانت هذه فى الواقع لعبة طفل آخر) . وأخذت حساسيته ترهف كلما شعر أن أحداً لا يصدقه ، وكان يؤكد المرة تلو المرة أن والده موجود حقيقة ، وكان يتوقف أحيانا فى أثناء اللعب ويصيح : « نعم إن لى أباً » مع أن أحداً لم يعارضه فى هذا .

وظل بعد ذلك ثلاثة أشهر على الأقل لا يتحدث بشىء آخر سوى ما يؤكده مراراً من وجوده . وفى سن الثالثة وخمسة شهور اتخذت صورة والده فى ذهنه شكلا جديداً محدداً ، ومر « بوب » فى ذلك الوقت بمرحلة من الخبث والميل إلى التخريب ، وكان من العسير عليه جداً أن يصبر على رفض مطالبه أو يكبح جماح طمعه أو يتغلب على تفاخره المتزايد بالاستمناء ، إلا أنه حاول من أجل مربيته أن

يتغلب على هذه المصاعب جميعا فكان نصيبه الفشل المرة بعد المرة ، وكانت تعتريه انفعالات شديدة ويأس . وكانت صورة والده فى هذه الأثناء مقترنة فى ذهنه بالعنف إذا ما رفضت رغباته ، وكلما ارتكب خطأ كان يفسره بقوله « إن أبى أخبرنى أن أفعل ذلك » أو « والدى يحب ذلك » . ومن حوادث « بوب » إغراؤه الأطفال بإلقاء خير لعبهم كلها فى مغسل الحديقة ، ثم أخذ هذا يضايقه بعد ذلك إلى أبعد حد فكان يقول « إنى فعلت هذا ، ولكن والدى هو الذى قال لى أن أفعل » .

ولما بلغ الثالثة والنصف حدث له حادث أكد له ما كان يتصوره بطريقة لم تكن متوقعة ولكنه رحب بها ، ذلك أن والدته استصحبت رجلا فى زيارتها لدار الحضانة وقدمته إلى « بوب » بوصفه عمه ، فاستغل « بوب » هذه الفرصة إلى أبعد مدى وأصر على أن ينادى الرجل « والدى » وأمسك بيده وجلس على حجره وسلك مع هذا الغريب مسلك من وجد صديقاً قديماً كان يفتقده منذ حين طويل . وكان على هذا الرجل أن يجلس بجواره على الفراش فى المساء حتى ينام ثم لم يره « بوب » بعد ذلك ، إلا أنه ظل يتخذ مما حدث دليلا قويا يدعم به دعواه بوجود والد له : « نعم إن لى أباً حقيقياً ، إنك تذكر . لقد كان يلبس معطفاً وقد أتى بطريق ولدربيرن وجلس على فراشى » .

وفى سن الثالثة وعشرة شهور اخترع « بوب » شخصية جديدة

أخذ ينسج على منوالها وهى لطفل كبير فى التاسعة من عمره ، عرفته أمه ، وكانت تشير إليه باسم « بوبى الكبير » . ونمت صورة « بوبى الكبير » فى ذهنه بسرعة حتى أصبح مثله الأعلى ، القادر على عمل كل شىء وتملك جميع الأشياء التى كان يرغب فيها « بوب » نفسه ، مثال ذلك : (سيارة ودراجة) . وفى هذا الوقت قاوم « بوب » مخاوفه وموقفه السلبى وأصبح يفخر بنفسه ويرغب فى جذب الأشياء التى لا تتناسب وقوته ، أو دفعها . وكان على الدوام يقفز عدداً من الدرجات أكثر مما يستطيعه عادة بسهولة ، وذلك لأن « بوبى الكبير » أيضا يمكنه القفز العالى « وفى الفضاء » ، وفى هذا الوقت بذل « بوب » جهدا محدودا ليصبح « طفلا طيبا » ؛ ومن أجل ذلك كان بوبى الكبير « على الدوام طيبا ، ولكنه عندما كان خبيثاً فى يوم ما سقط وتحطمت ساقه إلى قطع صغيرة » .

ولم يكن بوبى الكبير لينحاز إلى بوب فى رغباته الممنوعة كما كان والده الخيالى يفعل من قبل ، فكان بوب يقول فى صوت مرتفع « إن بوبى الكبير لا يحب أن أكون خبيثا » .

وفى الرابعة من عمره ظهرت فكرة الأب الوهمى مرة أخرى ، وكانت دليلا أقوى على شدة التخيلات التى تعمل فى دخيلة نفسه وعنفها ، وقد اتضح ذلك من حديثه عن أسرته : —

« لقد أصبح لى والد جديد ، وأن عمى قتل والدى ، ثم حضر والدى الجديد فقتل عمى » ، وقد أعلن فى هذه المرة أن والده قد مات

لأنه « سقط من طائرة ، وقد كان هو نفسه قنبلة ، فلما سقط انتثر قطعاً أو شظايا » . وقد حدث هذا فى وقت كان « بوب » قد تعلم ألفاظ السباب ، وبدلا من أن يكون ودوداً لحاضنته كان يخاطبها بلهجة جافة .

وبعد وقت قصير خلط بين الأب الوهمى وبوبى الكبير . أما نمو وجدان بوب الذى أكسبته إياه حاضنته فقد ظهر فى أن والده لم يفعل بعد ذلك الوقت شيئا ما يمكن أن يعد خطأ ، فقد أصبح ذلك الوالد قوياً كبيرا جميلا . وفى الشهر التالى حين بلغت سنه الرابعة والنصف أخذ على نفسه أن يصلح كل شىء يبدو له خطأ فى هذا العالم ؛ فإذا ما رأى بوب منزلا خربته القنابل قال « إن لدى أبى كميات من القنابل التى لا تدمر المنازل » ؛ فإذا رأى أحداً ينظف قفص الكنارى مما فيه قال « إن أبى لا يحب أن تخرج طيوره الفضلات كل الوقت ، إنه يضع لها الجير فى الماء » . وحين عرف أن لدى أحد المدرسين بإحدى المدارس القريبة عصاً يعاقب بها الأطفال قال « لدى والدى مدرسة جميلة ملأى باللعب وليس بها مدرسون » ؛ ولما مات طير من طيور الكنارى بدار الحضانة قال « لدى والدى عدد من الطيور الصغيرة التى لا تموت أبداً » .

وجاءت بعد ذلك الصورة الوهمية التى تخيلها بوب لأبيه ، وكانت مظهراً لمرحلة النمو التالية من حياة بوب ، فانتقل من تخريب بغير روية إلى كره شديد لذلك التخريب (القنابل غير المدمرة) ،

ومن وضع اللعب فى المغسل إلى عدم الرضا عن أقذار الطيور ، ومن تخيلات القتل إلى الرغبة فى عالم لا يموت فيه إنسان .

وخلاصة هذا كله أنه حين بلغ « بوب » الثالثة من عمره لم يكن « والده الوهمى » أكثر من صورة يمكنه أن يحبها ويعجب بها ويفاخر بها الناس ، فلما بلغ الثالثة والنصف استخدم هذه الصورة لتمثيل رغباته الغريزية الخاصة ، وفى سن الرابعة أصبح والده كثير الشبه بوالد توم ، فكان مثالا لكل شىء كبير وجميل وقوى وطيب ؛ وفى سن الرابعة والنصف استحال هذا الوالد الخيالى إلى ضمير للطفل نما فى ذلك الوقت وأصبح يميز بين الخير والشر .

الفصل السادس

نمو شخصية الطفل فى الظروف الخاصة بدار الحضانة

التقليد بدار الحضانة :

محاكاة الكبار : إن العلاقة العاطفية التى تنشأ بين الطفل الصغير وأحد الكبار من شأنها دائما أن تجعل الطفل يتشبه بالكبير ؛ فالأطفال الذين يعيشون مع والديهم ينقلون عنهما بالسليقة وبطرق لا حصر لها ، فهم يقلدون تعبير وجهيهما وحركاتهما ، وهم بالطبيعة يعيدون نفس كلماتهما ، كما يتمشى نمو أذواقهم معهما ، ويتأثرون حتما بما يكون لديهما من الهوايات أو الشذوذ ، ويحاكونهما فى كفاياتهما وأعمالهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولما كان الوالدان وحدهما هما اللذان يهتم بهما الطفل من الناحية العاطفية ، كان التقليد محصورا فى دائرة الأسرة ، وعندما يتعلم الطفل الناشىء أن يحب الناس من غير أسرته ويخافهم ويعجب بهم ، فإن الدافع إلى التقليد يمتد إلى هؤلاء الناس أيضا . وفى سلوك الأطفال اليومى وألعابهم الخيالية البرهان الكافى على وجود هذه الميول .

وطفل دار الحضانة الذى يكون قد فقد والديه وكون علاقات بدار الحضانة يفعل هذا بعينه مع الناس ويقلد أنماط السلوك التى

ارتبطت بها مشاعره ، مثال ذلك أن « روز » قالت (وهى فى سن ١٨ شهراً) : « آه ياعزيزتى ... آه ياعزيزتى » وهى من الكلمات التى تحبها ، وكانت تدور بوجهها وتومئ برأسها بطريقة خاصة . وقد نقلت هذه الطفلة الظريفة هذين الأمرين العجيبين عن مربيتها التى نيط بها وحدها أمر رعايتها مذ كانت سنها شهرين ونصف ، وكثير من الأطفال فى جميع الأعمار ينقلون عادات « الأم الحاضنة » فى معاملتهم للأطفال الآخرين أو مع لعبهم ، ويرتسم على وجوههم نفس التعبير الذى كان يبدو على وجوه مربياتهم فى مناسبات المدح أو الذم ، كما يتبعون نفس طريقتهن فى الاغتسال وتنظيف الموائد وخلع الملابس ، ويتخذون عين الوسائل لتوفير الراحة لطفل أصغر منهم أو لفض النزاع بين غيرهم . وإنا لندهش للآثار التى تنجم عن هذا النوع من التقليد أحيانا ، ويبدو أن ما فيه من قدرة فنية عظيمة لا يتفق مع سن الأطفال المبكرة . مثال ذلك أن طفلا مشاغباً عنيدا فى الثالثة والنصف من عمره كان يريد أن يجلس على مقعد معين ، ولكنه لم يرض أن ينتزعه من الجالس عليه بل تناول مسنداً للأقدام وقدمه فى صمت إلى الجالس على الكرسى مقلدا بذلك طريقة رآها من قبل عدة مرات .

ويمثل الأطفال فى سن الرابعة دور الممرضة مع رفقائهم ، أو يقومون « بالخدمة المسائية » فى عنابر النوم ، فيضعون الأخفاف

فى مواضعها ، ويحملون الأوانى ويرفهون عن الأطفال الباكين ، وهم لا يقومون بهذا النشاط بشعور نسائى يغلب عليهم ، أو لأنهم يفضلون هذه الضروب من النشاط على غيرها من نشاط الذكور ، بل لأن المرضة أو المربية النسائية هى حاضنتهم المختارة .

تقليد نماذج متضاربة من السلوك

إن الأطفال الذين يتصلون بأمهم الحقيقية التى تزورهم ، وبالأم الحاضنة بدار الحضانة ، تواجههم غالباً صعوبات جسيمة عند الجمع بينهما فى عواطفهم الودية ، وفيما ينجم عن هذا الجمع من محاكاة ؛ فطريقة أمهاتهم فى معاملتهم تختلف كل الاختلاف فى بعض الأحوال عن الطرق التى يسير عليها الملجأ ، فإذا ما حدث هذا ، نشأ عند الأطفال نوعان من السلوك يستخدمونهما الواحد بعد الآخر .

فمثلا « سوزان » (٤ سنوات) تحيرت فى علاقتها بين أم حقيقية قاسية للغاية وبين أمها الحاضنة التى تصادقها وتتفاهم معها فى دار الحضانة ؛ فكانت نتيجة ذلك أن معاملة « سوزان » لدميتها اختلفت أيضاً ، فكانت تعاملها بشدة عقب زيارات أمها لها ، فتضايقها وتزجرها وتعاقبها على أعمال سيئة تصطنعها لها ، فإذا مضى يومان أو ثلاثة دون أن ترى أمها ، فإنها تتحول عن هذه الطريقة إلى الطرق التى ينتهجها الملجأ فى المعاملة . فتتحدث إلى دميتها فى رفق وتشجعها وترفه عنها وما إلى ذلك . وتستمر الحال كذلك إلى

أن تزورها أمها مرة أخرى فتتغير الحال . وشبيه بهذه الحالة ماتستخدمه من الكلام والتعبير ، فقد كانت تستخدم ما سمعته ممن في الملجأ ساعة ، ثم تستخدم لهجة أمها المقتضبة الشبيهة بالتهديد ساعة أخرى .

نماذج أخرى للمحاكاة بالملجأ

لو صرفنا النظر عن الأم الحاضنة فالطبيبة أكثر الأشخاص تعرضاً لأن يحاكيها الطفل بالملجأ ؛ وهذا أيضاً يؤدى بنا إلى نموذج من السلوك قد يخيّل إلينا أنه لايتفق مطلقاً مع هذه السن المبكرة ، فقد يرى الشخص الأجنبي عن الموضوع أن فى موقف الأطفال من هذه الناحية تبكيراً غير عادى أو انحرافات شاذة سوداوية ، لكن التفسير البسيط لهذه الحالة كائن فى العلاقة الوجدانية بين الطفل والطبيبة ، فهذه العلاقة مزيج من الحب لها باعتبارها شخصاً ، والأعجاب بأدواتها الطبية والاعتقاد فى قدرتها فى جميع شئون الصحة والمرض ، وفى الخوف من الألم الذى تحدثه عند ما تكون الإجراءات الوقائية ضرورية ، كالحقن والتطعيم والعمليات الجراحية الصغيرة مثل فتح الدمامل أو العناية بالجروح وما إليها ، ولعل تقليد الطبيبة يظهر فى تمثيل الأطفال لدور الطبيب أو فى سلوك الأطفال كالتظاهر فى الحياة اليومية بمعرفة المعلومات الطبية .

مثال ١ : رأت « بردجت » (سنتان وربع) على الجانب الآخر من الشارع كلباً يأكل شيئاً فوقفت وصاحت قائلة : « لا تأكله أيها

الـكلاب وإلا أُصبت بالإسهال » .

مثال ٢ : زار « مارتن » (٣ سنوات) عمتـه وكانت تعطى طفلها دواءً ، وبعد مضى ساعة أُعطى للطفل قطعة من الـكعك ، فصاح « مارتن » فى دهشة : « لا . . . الطفل كعك . . . الطفل يسهل . . . أخذ الدواء » .

مثال ٣ : كانت «چانيت» (٤سنوات) تألف سمّاعة الطبيبة كما يألفها سائر الأطفال ، وعند ما رأت الطبيبة تصعد الدرج تساءلت « هل أحد يسعل هناك ؟ »

مثال ٤ : قالت « آن » (٦ سنوات) وهى منفعلة : « يجب أن نقيس درجة حرارة بولس ، إنه لم يصرخ أبداً من قبل ولـكنه يصرخ بشدة الآن ، لابد أن يكون مريضاً » .

الخلاصة :

فى جميع الحالات التى ذكرناها كانت نزعة التقليـد التى تعمل عملها فى حياة الطفل تسير سيراً طبيعياً ، فالطفل ينقل ويأخذ طرائق السلوك التى يلاحظها عند من يحبهم من الـكبار فى دار الحضانة ، كما يفعل ذلك بالنسبة لوالديه وطرق سلوكهما إن كان يعيش بينهما ، فإن كانت نتائج التقليد غير عادية أو شاذة فى بعض الأوقات ، فإنما يرجع هـذا إلى الظروف غير العادية أو الشاذة التى يعيش فيها طفل دار الحضانة .

نماذج من التصرف العائلي بدار الحضانة

إذا صرفنا النظر عن أنواع السلوك التى وصفناها ، والتى يمكن أن نعزوها مباشرة إلى تأثير حياة الملجأ ، وجدنا أن ميول أطفالنا تنمو نمواً مدهشاً كافياً ، ويمكن أن نرجعه فى ظروف الحياة العادية إلى الحوافز التى تدفعها قدوة الوالدين .

فالأطفال بين سنّ (١٥ — ٢٤ شهراً) يلعب بعضهم مع بعض إما بوئام أو بطرق جثمانية خشنة ، وإذا حدث هذا فى الأسرة أمكننا أن نتخذه دليلا على أنهم شاهدوا عملاً حبياً أو جنسياً بين والديهم (أنظر الفصل الثانى — العلاقات الأولى بين الأطفال فى دار الحضانة) . وهم يفعلون ذلك حتى إذا لم تكن لديهم الفرصة الطبيعية لمراقبة والديهم أو مشاطرة بعض الكبار غرفة النوم .

وتنمو فى الأولاد بين سنّ الثالثة والخامسة صفات الذكور المختلفة التى يظن عادة أنها ترجع إلى تقليدهم لشخص الوالد ، وعلاقة الأطفال بأمهاتهم الحاضنات فى دار الحضانة تتحول فى هذه السن من السلبية والاعتماد على غيرهم والحاجة إليهم إلى حالة من الرجولة والدفاع عن الغير ، وهم يعرضون على غيرهم الزواج كما يفعل الأطفال فى سنهم مع أمهاتهم (بوب سمث ٣ سنوات و١١ شهراً) — قبّل حاضنته قبلة المساء قائلا لها : « أسعدت مساء يا إلزا سمث » ،

أو يطلبون الزواج باسم والديهم . قال « تونى » (٤ سنوات ونصف) لمربيته المحبوبة عقب وفاة والدته مباشرة : « ألا يمكنك أن تصيرى أمى ؟ ألا يكون لطيفاً لو أصبحت أمى وكان والدى . . أبى ؟ »

ويبدأ الأطفال فى هذه السن فى ازدراء الإناث فقط (سأل بوب — ٤ سنوات ونصف — مربية صغيرة عن سبب كونها أنثى — فلما أفهمته أن الفرق بين الذكور والإناث فرق طبيعى وأن الناس يولدون كذلك ، نظر إليهـا بعطف كبير وأخـذ وجهها بين يديه وقبّـلها) .

وهم فى هذه السن أيضا يعرضون أن يرفّهوا عن غيرهم بدل أن يطلبوا الوقاية لأنفسهم : (عندما كان تونى فى سنّ الرابعة والنصف سمع بأن مربيته المحبوبة ليس لها أب أو أم فالتفت إليها وقال كمن يرغب فى حمايتهـا : ولـكنى أستطيع أن أكون ذا نفع لك ، أليس كذلك ؟)

ويحدث هذا التغير من تلقاء نفسه ، فهو خطوة من خطوات النمو ، وقد يقترن بأوهام تدور حول الأب (كحالتىْ بوب وتونى) ، ولـكنها لا ترجـع فى ذاتها إلى تأثير الأب مباشرة ، فـكثير من هؤلاء الأطفال لم يقابلوا آباءهم مطلقا ، ولم يعيشوا على اتصال وثيق برجل ما ، وربما يكون انفصالهم عن والديهم قد حدث فى سنّ طفولتهم الأولى :

وتنمو صفات الأمومة بوضوح فى علاقــة البنات (من سنّ الثانية تقريبا وما بعدها) برفقاء اللعب والأطفال الأصغر منهن سناً وبلُعبهن ، حتى إذا لم يجُرّبن رعاية الأم منذ طفولتهن الأولى ، أو لم تُتَح لهن الفرصة لرؤية أمهاتهن يعنين بطفل صغير .

ويصعب علينا بالطبع فى هــذه الحالة أن نفصل بين المثل الذى يأخذنه عن أمهاتهن الحقيقيات والمثل الذى يأخذنه عن سلوك المربيات اللاتى يقمن مقام الأم .

ولا تختلف الألعاب الوهمية التى يقوم بها الأطفال المقيمون بدار الحضانة عن ألعاب الأطفال النهاريين ، أو الأطفال المقيمين مع أسرانهم كما يتبادر ذلك إلى أذهاننا ، فالأطفال يلعبون دائما دور الأسرة مع تغيير فى توزيع الأدوار ، (فأنت تقوم بدور الأب ، وأنتِ تقومين بدور الأم ، وانت تقوم بدور الطفل) أوهم يتنافسون عادة على القيام بدور الأب .

والأطفال يستغلّون كلّ ما يتلقفونه من الحياة الحقيقية فى الأسرة بجميع تفاصيلها أوسع استغلال كما أوضحنا ذلك فى أمثلة الفصل الأخير ، فكلما زاروا والديهم أو زارهم هؤلاء فإن استجابتهم إلى محا كاتهم وألعابهم الخيالية تصبح من الشدة بحيث نعتقد فى غالب الأحيان أنها حدثت فى أثناء هــذه الزيارات . والواقع أن الحوادث أو الأعمال التافهة التى يقوم بها الوالدان تكفى لأن تدفعهم بقوة إلى ميول كامنة فيهم متحفزة للظهور . والعواطف التى يخلقها النظام العائلى والقدوة

التى تحتذى من سلوك الوالدين كلها كامنة فى نفوس الأطفال ، وهى تبرز فى كل مناسبة ممكنة (راجع ما قلناه عن والد « تومى » وتحريكه الطعام وعن « بوب » والرجل لابس المعطف) .

والأطفال الذين حرموا والديهم يشاطرون رفقاء اللعب خبرتهم ، فالقليلون من أطفالنا الذين يزورون والديهم يرجعون إلى دار الحضانة بمعلومات عن الحياة العائلية ، وسرعان ما يتلقفها الأطفال الذين حرموا مثل هذه الفرصة ويستخدمونها ، وبذلك يستطيع طفل واحد ذو والد على قيد الحياة يزوره ، أن ينشر بين مجموعة من الأطفال حرموا والديهم فكرة (شخص الأب) ، وذلك بسلوكه ولعبه المستمر .

وكلما فارق الأطفال أسراتهم ليلتحقوا بدار الحضانة كان عليهم أن يعانوا دوراً طويلا مؤلما ليوائموا بين أنفسهم وبين الوضع الجديد ، إذ لا يوجد فى تكوينهم النفسانى ما يعدهم للحياة الجماعية ، وكلما رجع الأطفال إلى أسرهم ، أو ألحقوا بأسر جديدة ، فإنهم يحصلون من جديد على البواعث والسلوك الذى يتمشى والعلاقات العائلية فى أقصر وقت ممكن .

نمو الطفل الناجم عن إدماج نفسه بغيره

تكوين الأخلاق

يحاول كل نوع جدى من التعليم أن يوجد حالة عقلية فى الطفل

يتمكن بواسطتها من الموائمة بين نفسه وبين مستوى عالم الكبار ، وليس ذلك لأنه يستحث دائما إلى هذا العمل ، بل لأن هذه المستويات تصبح مستواه هو ، فيمكن مثلاً تدريب الطفل على النظافة بطرق شتى ، وذلك بتكوين عادات لاشعورية ، بالتخويف من العقاب أو بالمدح المتواصل لما ينجم مثلاً عن استعمال الغسل من نتائج حسنة ، إلا أنه لا يمكن الوثوق من بقاء الطفل نظيفا مهما طال الوقت ، وأمام تغيرات الظروف الخارجية ، إلا إذا تكونت فيه الرغبة فى النظافة بل الشعور بكره العادات القذرة والاشمئزاز منها ، وهذا الشعور هو الذى يتحكم فى حياة الكبار المحيطين به .

ويمكن أن نحبب إلى الأطفال أن يتقاسموا حلواهم مع غيرهم : (فى إحدى جماعات دارنا للحضانة يمنح الأطفال على الدوام المشرفة عليهم قدرا من الحلوى التى تهدى إليهم مشفوعة بهذه العبارة « لأطفالك ») .

وأطفال المشرفات بالطبع هم أصدقاؤهن ورفقاؤهن فى اللعب ، ولكن يفهم من هذه العبارة « لأطفالك » أن الهدية إنما تهدى مراعاة لخاطر (أمهم المشتركة) . وليس معنى هذا أنهم تحلوا بعادة الكرم أو عالجوا أنانيتهم أو طمعهم ، فهم ليسوا مؤثرين أو كرماء بالمعنى الحقيقى لهذا اللفظ ولا يتحلون بهاتين الفضيلتين إلا بعد أن يعجزوا هم أنفسهم من غير ما ضغط عليهم عن تحمل نظرات الحرمان واللهفة التى يرمقهم بها الأطفال الآخرون إذا لم يشركوهم معهم فى هداياهم .

أما الميول العدوانية ، فإن التعليم يهدف فى هـذه الناحية إلى إشعار الطفل بأن إيذاء الغير لا يبعث على السرور ، وإلى استثارة الشعور بالعطف بدلاً من هذا .

أما معالجة الدوافع الجنسية عند الطفل فإن معظم الآباء لايقنعون إلا إذا استبدل الطفل بمسراته الساذجة الناجمة عن إشباع رغباته جميع ما يسود الجو المحيط به من تقدير لهذه المسرات أو لوم عليها .

فهذا التغير التام فى الشعور إنما يحدث فى أدوار بطيئة ، فالطفل فى بدء حياته لا تتحكم فيه غير رغباته الخاصة ، ثم يتعلم الإقلاع عن بعض هذه الرغبات إرضاء لوالديه (مثال ذلك ما قاله دريك « ٣ سنوات ونصف » عن أمه الحاضنة « إذا كانت سارة تحبنى فإن ذلك لا يكون وأنا مبلل ») .

ثم يبدأ الطفل فى المرحلة التالية أن يشترك مع والديه فى أحكامهما . مثال ذلك ما قالته « بردجت » فجأة وكانت سنها (سنتين وربعا) عندما وضعت فى المغسل عقب تلويثها لنفسها فى آخر دور من أدوار تكوين العادات : « لن ألوث الأرض مرة أخرى لأن والدتى لا تحب ذلك ، وكذلك « جان » (حاضنتها) لا تحب ذلك ولا بردجت أيضا » .

وينتهى الواجب التعليمى فى كل ناحية من النواحى الخاصة عندما يثبت الطفل على ميوله التى كونها حديثا دون حاجة إلى التوسل بصور الأشخاص الذين من أجلهم بدل الطفل أحكامه الذاتية بما

يناقضها ، ويكون حينئذ قد أقام لنفسه وازعاً أخلاقيا (ضميراً وشعوراً بالشخصية) يشمل القيم والأوامر والنواهى التى نفثها الوالدان أول الأمر فى حياة الطفل والتى تنظم الآن أعماله الخارجية مستقلة إلى حد ما عن العوامل الباطنية . ويتوقف ثبات هذه القوى الخلقية وقوتها ورسوخها فى نفس الطفل أحيانا إلى حد كبير على قوة العلاقات وتأصلها ومصيرها بوجه عام .

وعند هذه النقطة يواجه الطفل بدارنا للحضانة أعظم ما يحيط به من عقبات ، لأن الطفل المقيم بالملجأ قد يحصل على الوسائل السريعة المعدّة ليكيف نفسه وفق المجتمع . وهى الوسائل التى يهيئها الجو الذى يسود غرف الأطفال (كطرق الهجوم والدفاع والخضوع والمشاركة والمقايضة) ، ويمكن أن يحصل الطفل أيضا على العادات والمثل السلوكية بصدوعه لنظام الملجأ وتقليده للكبار ، ولكن ليس بين هذه النواحى من التقدم على ما فيها من إنماء لشخصية الطفل ما يؤدى إلى إبراز القيم الأخلاقية التى وصفناها ، فهذا النوع الأخير لا يتحقق إلا بشرط واحد هو أن يكون نتيجة لعلاقة عاطفية بأناس يعيشون فى الواقع ويشخصون المطالب التى تأخذ بها كل جماعة متمدينة لتجديد الميول البدائية الغريزية وتعديلها ، فإذا ما انعدمت أهداف الحب من هذا النوع فإن الطفل يُحرم من فرصة عظيمة الأهمية تمكنه من الاندماج فى هذه المطالب .

ويبذل أطفال دور الحضانة الذين فقدوا والديهم قصارى جهدهم

كما قلنا لاصطناع والد لهم أو شخص يقوم مقام الأم ، ويعيشون فى خيالهم على صلة قريبة بهما . على أن نتائج هذا الوهم مهما كانت ضرورية لمطالب الطفل العاطفية لا تؤدى نفس الغاية التى يؤديها الوالدان ، فهى إنما تنشأ فى حياة الطفل نتيجة لرغبته فى شىء يحبه ، ولكنه مفقود لديه ، فهو بهذه الطريقة يشبع رغباته ، وهى إلى ذلك تمثل قوى باطنة نشطة فى الطفل ، وهى بهذا الوصف شاهد على أدوار من النمو متعاقبة ، وهى صدى لضمير الطفل حين يكون هذا الضمير قد تكون بتأثير شخص آخر ، وليست هى الموجدة لهذا الضمير كما يوجده الآباء الحقيقيون .

والوضع المنطقى هو أن الذين يقومون بهذا الدور فى حياة الطفل فى دار الحضانة هم الكبار ، وإذاً فنجاح التعليم أو فشله فى دار الحضانة يتوقف على مقدار اتصال الطفل بهؤلاء الكبار ، فإن كانت هذه الصلات راسخة دائمة فلا بد أن يحصل طفل الملجأ على دوره الطبيعى فى النمو ويشكل شخصيته تشكيلا سوياً ، ويصبح كائناً مستقلاً من الناحيتين الاجتماعية والخلقية . فإن ظل الكبار فى الملجأ بعيدين عن الأطفال أو هيا كل لا شخصية لهم ، أو كانوا — كما يحدث فى بعض الملاجئ — دائمى التغير بحيث لا يكون بينهم وبين الصغار صلة دائمة ، فشل التعليم بالملجأ من هذه الناحية الهامة ، ومن أجل ذلك تبدو العيوب فى نمو الأطفال الأخلاق بتأثير الظروف الداخلية ، فقد يظل انسجامهم مع المجتمع سطحياً ويتعرض مستقبلهم لجميع أخطار التنافر الاجتماعى .

الفصل السابع

الخاتمـــة

أكبر الظن أن بقاء دور الحضانة أو زوالها بعد الحرب ستقرره الضرورات الاجتماعية والاقتصادية لا الحاجات السيكولوچية ، وبالرغم من ذلك فإن من المفيد للإنسان أن يكون فكرة عن الظروف السيكولوچية فى الملجأ .

توجد فى حياة الأطفال نواح يمكن أن تكون حياة الملجأ فيهـا ذات فائدة عظيمة جدا فى توفير الظروف الممتازة للنمو كالصحة والنظافة وتقـدم المهارات والاستجابات الاجتماعية المبكرة على مثال ما يوجد منها فى مدارس الحضانة . وتوجد كما قلنا آنفاً نواح أخرى يهم دور الحضانة أن تعرف قصورها وعجزها فيها كحياة الطفل العاطفية ونموه الخلق ، وإذن يكون من واجبها أن تعالج بل تحارب بشدة نتائج هذا القصور .

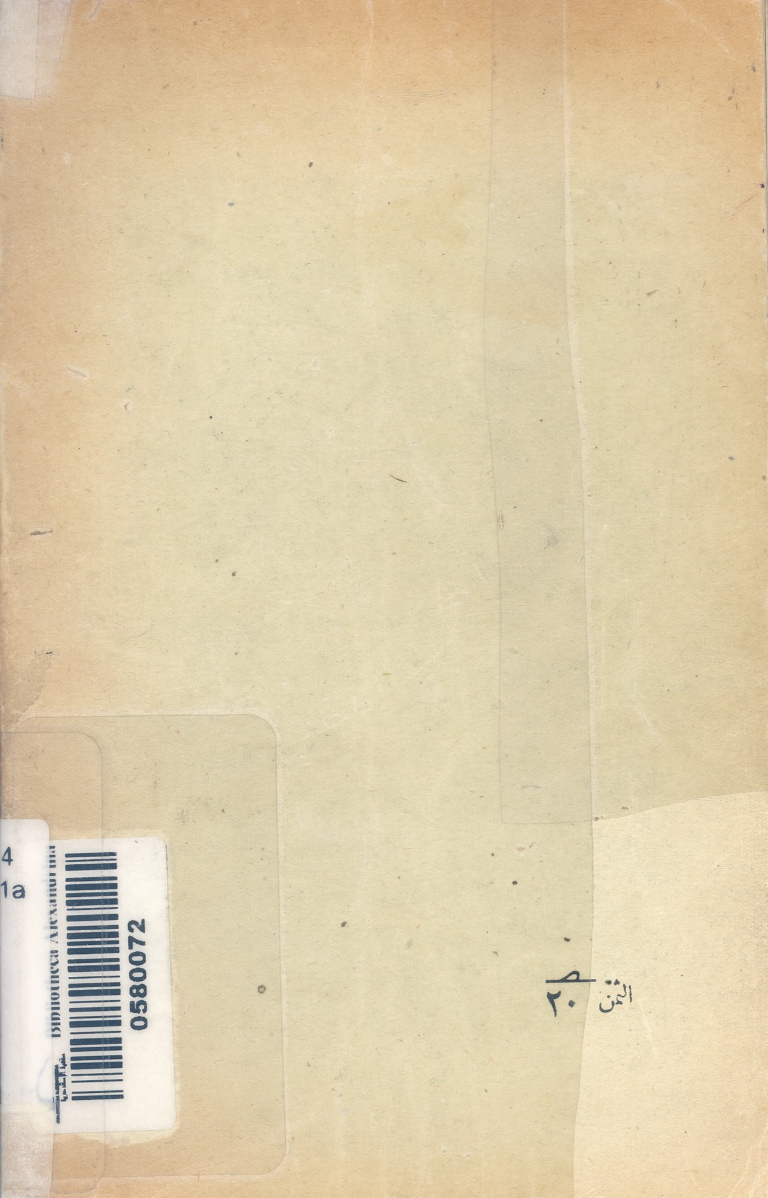
ولا بد أن يدرك القراء الملمون بأصول علم النفس التحليلى الاهتمام الخاص الذى حدا بالمؤلفتين إلى القيام بهذه الأبحاث ، فلقد وجّـه التحليل النفسى منذ نشأته الانتبـاه إلى عظم أهمية السنوات الخمس الأولى فى حياة الطفل ؛ فنى خلال هذه الفترة تعمل القوى

الغريزية البدائية عند الطفل فى نشاط واضح (كلعب الأطفال الجنسى وما يتفرع عنه وما يشتق منه ، والعداء البدائى) ، فنى علاقات الطفل الأولى بوالديه أو ما يطلق عليه عقدة (أوديپ) يستخدم الطفل هذه القوى ثم يتغلب عليها عن طريق إدماج نفسه فى رغبات والديه (تكوين الضمير) فتكبت حينئذ معظم الحياة الغريزية وتصبح لا شعورية أو تنسى وتختفى معالمها فى الظاهر ، ويبدأ الطفل الناشئ حياة جديدة أساسها كبت هذه الغرائز ومدافعتها .

وما دمنا قد اعتدنا رؤية حدوث هذا النمو بتأثير عقدة (أوديپ) أى علاقة الطفل بشخص والديه ، فإنه يهمنا كثيرا أن نبحث عما يحدث عندما يتحطم الكيان العائلى جملة ، وماذا يفعل الطفل إزاء حاجته إلى الاستجابة العاطفية ؟

وكيف يحل مكانها نشاط وهمى ؟ وكيف تستطيع هذه القوى الداخلية التى تسيطر على غرائزه أو تحولها أو تقمعها أن تعمل فى هذه الظروف ؟

إن الملاجئ تفيض فرصاً ممتازة للمشاهدات الدقيقة المتصلة فى حياة الطفل ، فإذا استفدنا من هذه الفرص أكبر فائدة مستطاعة أمكننا أن نجمع مادة قيمه عن استجابة الطفل العاطفية والتعليمية فى هذه الأدوار المبكرة ، وأن نطبقها فى تنشئة غيره من الأطفال الذين سعدوا بالعيش فى ظروف أقرب من هؤلاء إلى الحياة السوية .


الثمن ٢٠ ص
Bibliotheca Alexandrina
0580072